الدكتور شوقي أبو خليل

حطين

بقيادة صلاح الدين الأيوبي

(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) ١٦





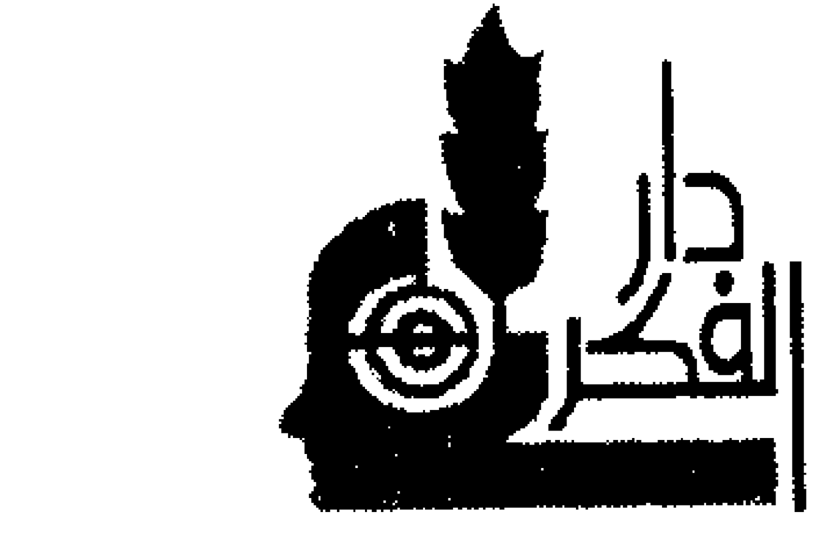
حطين: بقيادة صلاح الدين الأيوبي/ شوقي أبو خليل
.-دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٥ .- ٩٦ص: خرائط،
صور؛ ٢٠سم.(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام).
١-٩٥٦,٠٥٤٥ خ ل ي ح ٢- العنوان
٣- أبو خليل ٤- السلسلة

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام



بقيادة صلاح الدين الأيوبي

الدكتور شوقي أبو خليل



آفاق معرفة متجددة

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٨٤٦,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN:1-57547-500-6
الرقم الدولي: ISBN:1-59239-417-5
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: حطين
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٩٦ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة



دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢٦هـ
حزيران (يونيو) ٢٠٠٥م

المحتوى

مُقَدِّمَة

بسم الله، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه، وبعد:

فالحديث عن معركة حطين وقائدها صلاح الدين الأيوبي يتجدَّد بتجدُّد الأحداث المشابهة، فالغزو الأجنبي يتكرَّر اليوم بشكل أشرس، وأدوات تدمير أفتك.

صلاح الدين الأيوبي من الشَّخصيات القليلة في التَّاريخ التي امتدحها أعداؤها واحترموها، والاحترام شعور قلبي بالتَّقدير، وكان أعداؤه يصغرون أمام أنفسهم حينما ينقضون اتِّفاقاً معه، ويقفون أمامه موقف الذي هو في عار، وشهد بذلك كثيرون، كان آخرهم البابا شنودة الذي قال: «إنَّنا نحيِّي شخصية صلاح الدِّين كرجل قويٍّ، وكرجل وحَّد كلمة العرب، وكرجل

استطاع أَن ينتصر، وكرجل إِنسانيَّة، ورجل لا يميل إِلى سفك الدِّماء»[١].

فضائله أَسَّست عليها أُوربة مبادئ الفروسيَّة وأَخلاقها.

تعلَّم على يد كبار العلماء، مثل: قطب الدِّين النَّيسابوري، وأَبي طاهر السِّلَفي، وأَبي طاهر بن عوف، وعبد الله بن بري النَّحوي... وآخرين، إِنَّه فقيه شافعي، جمع إِلى الفقه الحديث والعقيدة، روى الحديث عنه أُناس مثل يونس بن محمد الفارقي، والعماد الكاتب، وغيرهما.

من وزرائه القاضي الفاضل[٢]، أديب من أئمة الكتَّاب، وعلم من أَعلام المترسِّلين، كان من مشاهير وزراء صلاح الدِّين، وقد تمكَّن منه حتَّى قال صلاح الدِّين: لا تظنُّوا أَنِّي ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل، وقيل: كانت الدَّولة بأَسرها تأْتي إِلى خدمته، كان سريع الخاطر في الإِنشاء، لو جُمِعَت رسائله كلُّها ما قصَّرت عن مئة مجلَّد، قال العماد الأَصبهاني: ربُّ القلم والبيان، واللَّسَنِ واللِّسان، والقريحة الوقَّادة،

(١) حطِّين صلاح الدِّين والعمل العربي الموحَّد ١٣، الطَّبعة الأُولى ١٩٨٩م، دار الشُّروق، القاهرة.

(٢) القاضي الفاضل عبد الرَّحيم بن علي اللَّخمي البيساني [٥٢٩-٥٩٦هـ/ ١١٣٥ - ١٢٠٠م].

والبصيرة النَّفاذة.. وهو ضابط الملك بآرائه، ورابط السِّلك بآلائه[١].

عرف صلاح الدِّين ما أراد، وسعى إليه بخطوات سليمة مدروسة، أَدرك الموقف بدقَّة، فحقَّق الهدف المرسوم بضربات موجعة لعدوِّه، مثبتاً أن النَّصر مرتهن بالتَّضامن والوحدة، وتضافر الجهود، قاتل بعيداً عن أيِّ شعور بالانتماء إلاَّ لدينه، فجاهد بوصفه بطل الأُمَّة الإِسلاميَّة، ضد غزو هو في جوهره أَطماع دنيويَّة غلَّفتها أُوربة بشعارات دينية، ولا أَدل على ذلك من أنَّ المسيحيِّين الشَّرقيِّين كانوا يتنفسون الصُّعداء، حينما ترجع الأَرض إلى أَصحابها من يد الصَّليبيِّين، وبطريرك الأرثوذكس في القدس طرده الصَّليبيُّون الكاثوليك، ولم يعد إلاَّ مع صلاح الدِّين، فلا تسامح مع المذهب الآخر ضمن العقيدة الواحدة، فكيف احترامهم لعقيدة آخر؟

والأُسقف أميري دي ليموج، حينما قاوم الصَّليبيِّين وقبض عليه القائد الصَّليبي شتيون، عذَّبه عذاباً شديداً، وقتله صبراً،

(١) خرج الفاضل مرَّة من عند العماد الأَصبهاني الكاتب، فخرج العماد يشيِّعه، فقال القاضي الفاضل للعماد: «دامَ عُلا العمادِ»، فأَجابه العماد قائلاً: «سِرْ فلا كبَا بكَ الفَرسُ»، والطَّريف في العبارتين أَنَّهما تقرأان من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين فلا يختلُّ تركيبهما ولا معناهما، (الموسوعة العربيَّة العالميَّة ١٨/ ٢٤).

جرَّده من ملابسه، ثمَّ طلى جسمه بالعسل، ثمَّ تركه للحشرات والهوام إلى أن مات، وحينما بلغ صلاح الدِّين ذلك، قرَّر القصاص العادل، فاقتص من شتيون بنفسه جزاء ما فعله بالأُسقف الكاثوليكي.

وعيسى العوَّام قائد قبطي من أَقرب أَصحاب صلاح الدِّين إليه، ومن أَحْسَنِ أُمراء العرب في الحروب الصَّليبيَّة، وحتَّى إمبراطور القسطنطينيَّة إسحاق أنجيلوس سُرَّ لانتصار صلاح الدِّين في حطين وفتح بيت المقدس، أَرسل إليه صلاح الدِّين رُسُلاً مع هدايا ليعلنوا فتح بيت المقدس، ورد الإمبراطور برسالة مفادها: أَن المسلمين والمسيحيِّين الأُرثوذكس الشَّرقيِّين يستطيعون أَن يتعايشوا بسعادة، وأَرسل صلاح الدِّين إماماً ومؤذنين وقرَّاء قرآن لمسجد القسطنطينيَّة.

حطِّين انتصار على جيش قوي، فالعسكر الصَّليبي يفوق في العَدَد والعُدَد العسكر الأَيوبي، والمقاتل الصَّليبي محميٌّ بسلاح سابغ وثقيل هو وحصانه، وكان الفارس منهم يحمل من الأَقنعة ما يجعله صعب المنال.

ومما يذكر، أَن الحروب الصَّليبيّة لم تدر رحاها في الشَّرق الإسلامي فقط، بل ظهرت واضحة في الغرب أيضاً، حيث دارت منذ القرن الحادي عشر الميلادي حرب بين المسلمين

والإسبان في الأندلس، حتّى استطاع ألفونسو السّادس ملك ليون وقشتالة أن يستولي على مدينة طليطلة عام ١٠٨٥م، وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم في الأندلس، وترك ذلك دويّاً هائلاً في أرجاء العالم المسيحي الغربي، واستثار الشُّعور والحماسة لطرد المسلمين كلّيَّة من إسبانية، كما جعل المسلمين يفكِّرون في طريقة فعالة لوقف الخطر الإسباني، واسترداد ما فقدوه من أراض، فكانت الزّلاقة سنة ١٠٨٦م بقيادة سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين، الذي أمدَّ بقاء المسلمين أربعة قرون أُخرى في الأندلس.

أقامت (إسرائيل) ندوة مفتوحة عام ١٩٨٧م بمناسبة مرور ثماني مئة سنة على حطّين، لتفسير الأحداث من منظورها الصُّهيوني، مع أن حقائق التّاريخ أرسخ من أن تبدلها أو تشوهها شهادات زور.

درس العدو الصُّهيوني الحروب الصَّليبية عبر سؤال واحد فقط: لماذا طُرِد الصَّليبيُّون من بلاد الشَّام بعد مئتي سنة من تأسيسهم إماراتهم فيها، وجاءت الإجابة بمجلّدات، وهدفها: كي لا يدخل العدو - برأيه - مدخلاً خطأ أدّى لطردهم من الشَّرق، مع أنَّ القاعدة السُّننيَّة التّاريخيَّة تقول: كلُّ جسم غريب يلفظ حتماً، طال الزّمان أم قصُر.

وأخيراً.. زار دمشق سنة ١٨٩٨م ويلهيلم الثَّاني إمبراطور ألمانية، فزار قبر صلاح الدِّين، وقام بإصلاح القبر الذي كان مهملاً، احتراماً وإجلالاً، لأنه مثال (العدو النَّبيل)، حتَّى رأى الفرنسيُّون أنَّ له أُمّاً فرنسيَّة أوجدَّة فرنسيَّة، ورأى الإنكليز أنَّها يجب أن تكون إنكليزيَّة.

«إنَّ العقائد التي يبنيها الحقد يهدمها الانتقام، والعقائد التي يبنيها الحبُّ يحميها الإحسان»، إنَّ الغزو الَّذي واجهه صلاح الدين تكرَّر اليوم، والسَّبيل هو السَّبيل، الحقُّ رداؤه القوَّة، فإن أراد ألّا يزدرى عليه ألّا يتعرَّى.

دمشق الشَّام ١٥ رجب الفرد ١٤٢٥هـ

٣٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٤م

الدكتور شوقي أبو خليل

shawki @ fikr. com

❋ ❋ ❋

العالم الإِسلامي قبيل الحروب الصَّليبيَّة

ضعفت الدَّولة العباسيَّة وتفكَّكت، وظهرت دويلات مستقلَّة، وبذلك تصدَّعت وحدة الخلافة الإِسلاميَّة، مما جعل الإِمبراطوريَّة البيزنطيَّة تنتقل في القرن العاشر الميلادي من الدِّفاع إلى الهجوم، حتَّى سيطرت على أَرضروم، وأَجبرت حكام ملطية وديار بكر وميافارقين على دفع إِتاوة للبيزنطيين، ثمَّ سيطرت على مرعش وعلى طَرَسُوس.. ولم تحل سنة ٩٥٩م إلاَّ ووصل الجيش البيزنطي إلى غربي شواطئ دجلة[١].

وفي زمن نقفور فوقاس وصل البيزنطيون حلبَ سنة ٩٦٢م، ولما عجز عن الاستيلاء على قلعتها، قفل راجعاً، ثمَّ عاد فأَغار على معرَّة النُّعمان وشيزر سنة ٩٦٨م، وسيطر على أنطاكية سنة ٩٦٩م، وفي هذه السَّنة حكم الفاطميُّون مصر وجنوب بلاد الشَّام.

وفي زمن حنّا زمسكيس (شمشقيق)، فقد وصل البيزنطيُّون إلى

---

(١) للتَّوسُّع في (العالم الإسلامي قبيل الحروب الصَّليبيَّة) يراجع كتاب (الحركة الصَّليبية) ٥٨ ومابعدها. فهو المرجع الأهم لهذا الكتاب.

دمشق وطبريَّة، واتَّخذ هذا الزَّحف طابعاً صليبيّاً واضحاً، ظهر بجلاء حينما صرَّحوا أَنَّهم يزحفون نحو الأرض المقدسة، ولم يستعصِ على الإمبراطور حنّا إلاَّ طرابلس، ولم يستطع الوصول إلى القدس، وكانت أقصى نقطة وصل إليها في بلاد الشَّام جنوباً هي مرج ابن عامر الواقع بين حيفا وبيسان.

وعاود البيزنطيُّون الهجوم على بلاد الشَّام، فاستولوا على شيزر وحمص وطرطوس ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م.

إحياء قوّة المسلمين في الشَّرق، السَّلاجقة

السَّلاجقة أتراك موطنهم الأصلي أواسط آسية، في المناطق السَّهليَّة المحيطة ببحر آرال (بحر خوارزم)، اعتنقوا الإسلام وهم في طريق هجرتهم إلى بلاد الشَّام، عند نهر سيحون (سردارية)، نُسِبوا إلى جدِّهم سلجوق بن تقاق، وتبعوا الغزنويِّين حتَّى استطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٨م، وتابع زعماء السَّلاجقة من أُسرة طغرل بك العمل كلٌّ لصالحه، فتوسَّعوا في فارس وشمال العراق وأرمينية وآسية الصغرى، وفي سنة ١٠٥٠م دخل طغرل نفسه أصفهان، وجعلها حاضرة ملكه، وبدأ التَّدخُّل في شؤون الدولة العباسيَّة، التي كانت تمرُّ بمحنة قاسية بعد أن ظلَّت قرابة

قرن ترزخ تحت حماية آل بُوَيه وسيطرتهم[1]، ولم يتورَّع البساسيري الذي ترك له البويهيون مقاليد الأُمور من تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العبَّاسيَّة، ودخل بغداد تحت لواء الخلافة الفاطميَّة، وأبلغ الخليفة العباسي القائم بأمر الله بذلك، فاستنجد بالسَّلاجقة السُّنَّة، فسار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥م، ليقضي على البساسيري ويقتله، وبذلك سيطر السَّلاجقة على الخلافة العباسيَّة بعد البويهيِّين.

وتبدَّل الموقف في العالم الإسلامي عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣م، فبعد أن كانت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة تجد على حدودها الشَّرقية في القرن العاشر الميلادي دولة إسلاميَّة منحلة سياسيّاً، ومنقسمة على نفسها مذهبيّاً وحربيّاً، إذ بالعنصر التُّركي الذي ظهر على مسرح الأحداث في القرن الحادي عشر الميلادي يبثُّ في الدَّولة الإسلاميَّة روحاً جديدة، وعزيمة قويَّة، ويُهَيِّئ للمسلمين في الشرق الأدنى قدراً من الوحدة، مكَّنتهم من استئناف التَّوسُّع من جديد على حساب جيرانهم البيزنطيِّين حتَّى

---

(١) دخل البويهيُّون بغداد ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م أيَّام الخليفة المستكفي بالله، ودخلها السَّلاجقة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م أيَّام القائم بأمر الله، فقضوا على دولة آل بويه، بقي خلالها الخلفاء العبَّاسيون في الحكم صورة فقط. (الدُّول الإسلاميَّة، ستانلي لين بول، ٣٦ و٢٨٣).

تمكّن السّلاجقة من الوصول إلى ملاذكرت[١] - شمال بحيرة وان - وإلى طرابزون على شاطئ البحر الأسود، واشتدّت هجماتهم بين سنتي ١٠٥٧-١٠٨١م، فوصلوا ملطية ١٠٥٧م، وسيواس ١٠٥٩م.

معركة ملاذكرت Malazgirt

كانت معركة ملاذكرت بين السّلاجقة المسلمين بقيادة السُّلطان ألب أرسلان، وجيش الدَّولة البيزنطيَّة - الرُّوميَّة الشَّرقية - بقيادة إمبراطورها رومانوس الرَّابع بتاريخ ٤٦٣هـ/ ٢٩ آب (أغسطس) ١٠٧١م.

وترجع أسبابها إلى تمكُّن السُّلطان السَّلجوقي ألب أرسلان في مدَّة قصيرة، من الاستيلاء على معظم البلاد الرُّوميَّة المجاورة، مثل جورجية وبلاد الأرمن، وعمل على نشر الإسلام في هذه المناطق، فكان طبيعياً أن يُغضب هذا إمبراطور الرُّوم رومانوس الرَّابع (يوجينس)، فصمَّم على غزو الشَّام، فجمع جيشاً جرّاراً، ضمَّ أخلاطاً من الشُّعوب النَّصرانيَّة، فيهم الرُّوس والفرنسيُّون والبلغار واليونانيُّون والجورجيُّون، وسار بهم إلى أن

---

(١) ملاذكرت: بلدة على مقربة بحيرة وان، كانت تدعى قديماً: مانتزيكرت، كانت عاصمة لإمارة عربيَّة في القرن التَّاسع الميلادي، احتلها البيزنطيُّون سنة ١٠٠١م، (انظر موقعها على المصوَّر).

عسكر في نواحي ملاذكرت بالقرب من مدينة أَخلاط، شمال بحيرة وان، في شرقي آسية الصُّغرى.

وحينما أَيقن أَلب أَرسلان أَنَّه لا قِبَل له بهذا الجيش، عرض الصُّلح على الرُّوم، ولكنهم رفضوا اغتراراً بقوَّتهم وجموعهم، لقد أَرسل أَلب أَرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرَّابع طالباً مهادنته، فردَّ الإمبراطور قائلاً: «لا هدنة إِلاَّ بالرَّيِّ»، أَي إِنَّه ينوي غزو بلاد السَّلاجقة حتَّى يصل إلى قلب دولتهم، مدينة الرَّي - طهران حاليّاً - وعندئذ انزعج السُّلطان أَلب أَرسلان، ولم يعد هناك مفرٌّ من القتال، فأَعلن الجهاد المقدَّس لإِنقاذ بلاد الإسلام من الصَّليبيِّين، فقويت الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده، واستماتوا في القتال، وتمكَّنوا من انتزاع النَّصر في معركة حامية الوطيس بالقرب من ملاذكرت، وأُسر قائد الرُّوم، وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين الطَّرفين مدَّتها خمسون سنة، تعهَّد الرُّوم فيها بدفع الجزية للسَّلاجقة، وافتدى رومانوس نفسه بمالٍ كثير، ورجع إِلى بلاده صارفاً النَّظر عن هذا الجزء من آسية الصُّغرى.

كانت هزيمة ملاذكرت أفدح خطب نزل بالدَّولة الرُّومانية الشَّرقيَّة منذ أَحقاب طويلة، وكان لها أكبر الأثر في تحطيم منعتها، وتفكيك أوصالها، ومهدت لقيام مملكة الرُّوم الإسلامية في قلب آسية الصُّغرى، لأنَّ أَلب أَرسلان عيَّن على إِثر ملاذكرت، أميراً من أبناء عمومته هو سليمان قطلمش

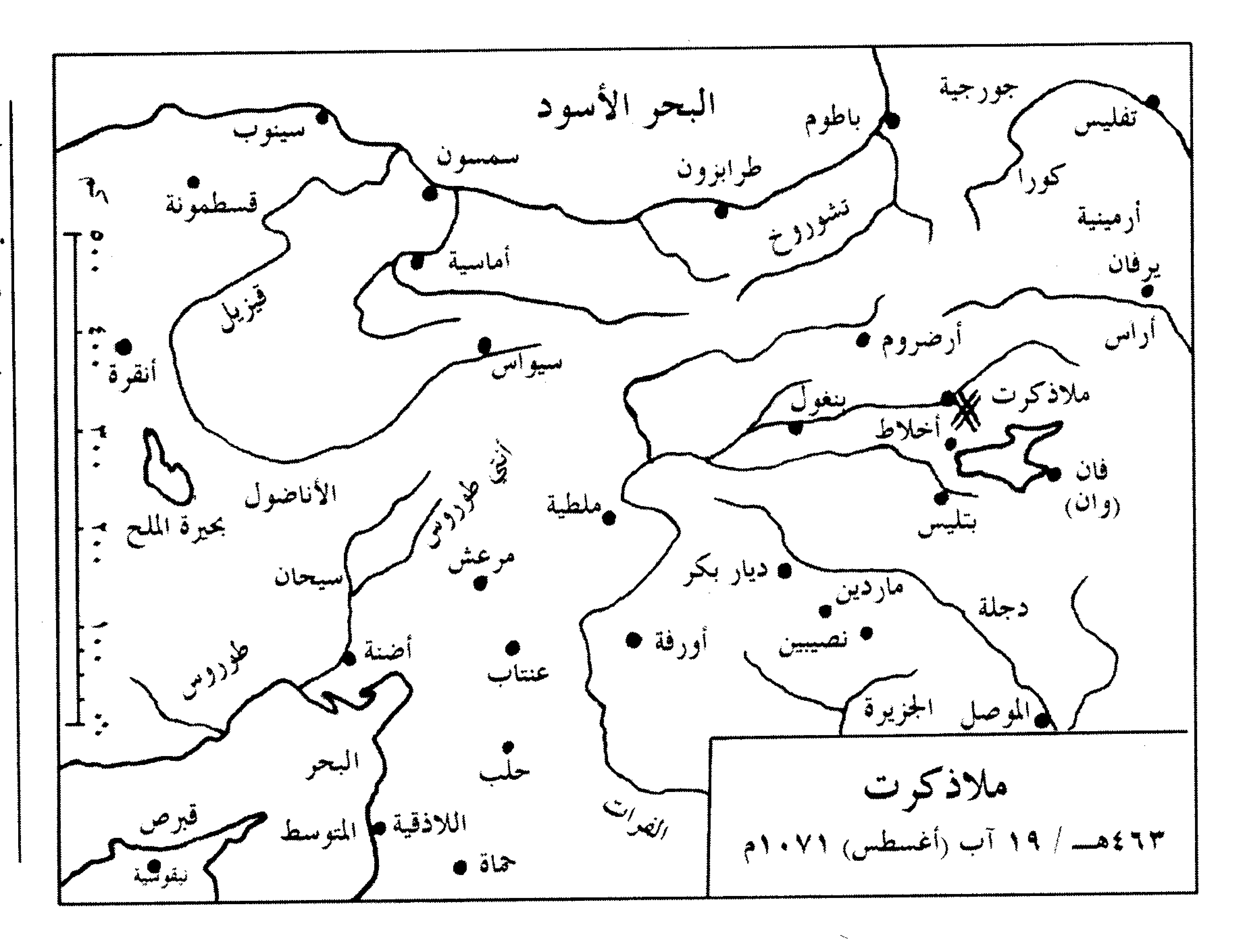
حاكماً على الأراضي الإسلامية في آسية الصُّغرى، وتمكَّن هذا الأمير من التَّوسع غرباً، وانتزع أنطاكية من الرُّوم، وجعل قونية عاصمة دولته الجديدة.

وساعد هذا الانتصار على القضاء على الدَّولة البيزنطيَّة نفسها على أيدي الأتراك العثمانيِّين بعد ذلك، وكان من نتائج هذه المعركة أيضاً أن استغاثت القسطنطينيَّة بأُمم الغرب، فراع هذا البابا جريغوري السَّابع، فرأى المبادرة بإعداد حملة لحماية الدَّولة الشَّرقية التي كان يعدُّها سدّاً منيعاً لحماية أُوربة من وثبات الإسلام من جهة الشَّرق، فاستغاث بأُمراء أُوربة، ولكنه لم يلق تجاوباً، وكان على البابا الجديد أُوربان الثَّاني أن يحيي مشروعه، فتدارك خطأ سلفه بأن وجَّه الدَّعوة إلى الأُمراء والدَّهماء، ونجح في إثارة النَّصارى ضد المسلمين، وجمع منهم جيشاً كبيراً سار به إلى الشَّام، وكانت أنطاكية أوَّل قاعدة كبيرة وقعت بأيديهم(١).

وهكذا... فإن أهم نتائج ملاذكرت: كارثة حلَّت بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، دلَّت على أنَّها ليست قادرة على حماية المسيحيَّة، وحراسة الباب الشَّرقي لأُوربة من غزو الآسيويين، فبدأ يفكِّر أن يقوم هو نفسه بحماية نفسه، لذلك رأى بعض المؤرِّخين أن نتيجة لملاذكرت كانت الدَّعوة للحملات الصَّليبيَّة سنة ١٠٩٥م.

---

(١) الموسوعة العربيَّة العالمية ٢٤/ ٨٣.


ملاذكرت
٤٦٣هـ / ١٩ آب (أغسطس) ١٠٧١م
البحر الأسود
سينوب
قسطمونة
سمسون
أماسية
قيزيل
أنقرة
بحيرة الملح
الأناضول
سيواس
طرابزون
باطوم
تشوروخ
جورجية
تفليس
كورا
أرمينية
يرفان
أراس
أرضروم
ملاذكرت
بنغول
أخلاط
فان
(وان)
بتليس
ملطية
أنتي طوروس
مرعش
سيحان
طوروس
أضنة
عنتاب
حلب
ديار بكر
ماردين
نصيبين
أورفة
دجلة
الجزيرة
الموصل
البحر
المتوسط
اللاذقية
حماة
قبرص
نيقوسية
الفرات

ويبدو أن أَلب أَرسلان أَراد أَن يوقف البيزنطيِّين على الحياد إِزاء توحيد العالم الإسلامي، فلم يستغل انتصاره في محاولة احتلال آسية الصُّغرى كلها، فعامل رومانوس الرَّابع معاملة طيِّبة، وأَحسن وفادته، ثُمَّ أَطلق سراحه بعد ثمانية أَيَّام من أسره، وأعاده إلى بلاده معزَّزاً، بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار، يستعين بها على السَّفر[١]، فلما وصل القسطنطينيَّة، رأى النَّاس قد نصَّبوا ميخائيل السَّابع إِمبراطوراً، فقبض على رومانوس وسمل عينيه.

واستشهد أَلب أَرسلان في حروبه في ما وراء النَّهر سنة ١٠٧٢م، فخلفه ابنه ملكشاه الذي ثبَّت دعائم دولة السَّلاجقة، حتَّى اتَّسعت في عهده من حدود الصِّين شرقاً، حتَّى بحر مرمرة غرباً، حيث توسَّع أحد أقربائه وهو سليمان بن قتلمش في آسية الصُّغرى، واتَّخذ مدينة نيقية حاضرته، وهي المدينة التي أصبحت أوَّل عاصمة لسلاجقة الرُّوم في الأناضول، ثُمَّ حلَّت محلَّها قونية.

واستطاع قلج أرسلان الأوَّل ابن سليمان فرضَ سيطرته على آسية الصُّغرى كلِّها، باستثناء بعض السَّواحل المطلَّة على البحرين الأَسود والمتوسِّط.

---

(١) يعترف غريغوريوس ابن العبري في كتاب (تاريخ مختصر الدول) بشهامة ألب أرسلان، ١٨٥.

وضمَّ السَّلاجقة إلى سلطنتهم حلب سنة ١٠٧٩م من صاحبها المرداسي، وأَخذوا دمشق وفلسطين، ولم يستطيعوا دخول مصر[1].

واستفاد الصَّليبيُّون من النِّزاع الذي قام بين أُمراء آسية الصُّغرى وبلاد الشَّام من السَّلاجقة، وغرقت بلاد الشَّام في بحر من الفوضى، بسبب المنازعات بين السَّلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الفاطميِّين، في الوقت الذي لاح فيه الخطر الصَّليبي الأُوربِّي في سماء الوطن العربي، ولم تحل سنة ١٠٩٦م إلاَّ والسَّلاجقة خمس ممالك متنافسة:

١- سلطنة فارس، عاصمتها أَصبهان، وعلى رأسها بركياروق، الذي كانت له السَّيطرة على بغداد.

٢- ومملكة خراسان وماوراء النَّهر، وعلى رأسها أبو الحارث سنجر.

٣- ومملكة حلب، وعلى رأسها رضوان بن تتش.

٤- ومملكة دمشق، وعلى رأسها دقاق بن تتش.

٥- وسلطنة سلاجقة الرُّوم، وعلى رأسها قلج أَرسلان بن سليمان بن قتلمش.

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٩٠.

وبذلك تكون القوّة التي أثبتت أنّها سيوف الإسلام الذّائدين عنه، قد تفتّت عند فجر الحركة الصّليبيّة، مما كان له أكبر الأَثر في نجاح الحملة الصّليبيّة الأُولى.

وأكبر مظهر لانحلال سلطان السّلاجقة في بلاد الشام والعراق، ظهور عدد من البيوتات الحاكمة، لا تجمعها إلاّ الاتّصال بالبيت السّلجوقي، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسيّة أُطلق عليها اسم الأتابكيّات، وعلى أَصحابها اسم الأتابكة[١]، منها: أَتابكة دمشق ومؤسّسها ظهير الدِّين طغتكين، وأتابكة الموصل ومؤسّسها عماد الدِّين زنكي بن آقسنقر.

❊ ❊ ❊

(١) أتابك لفظ تركي، معناه مربِّي الملك، مشتق من لفظين هما (أتا) بمعنى الأب، و(بك) بمعنى نبيل أو شيخ، و(أتابك) استخدمت إبان العصر العباسي بمعنى مربي الملك، أو مربي الأمير، وهو عادة ممن يمتُّون إلى الملك أو السُّلطان بصلة القرابة من جهة الأب، (القاموس الإسلامي ١/ ١٨).

الحملة الصَّليبيَّة الأُولى

أَعلن البابا أُوربان الثَّاني الحرب الصَّليبيَّة منتهزاً فرصة عقد المجمع الدِّيني في كليرمونت[1] في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥م، فصادف نداؤه استجابة من جمهور الحاضرين، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد: «هذه مشيئة الله Deus Lo Volt»، وجاءت هذه الصَّيحة إِيذاناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصَّليبيَّة، قُدِّر لها أَن تستمر عدَّة قرون.

وجثا أدهمار أَسقف بوي[2] Puy، أمام قدمي البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة في الحرب المقدَّسة ضد المسلمين، فاختاره البابا أُوربان الثَّاني مندوباً بابويّاً في الحملة الأُولى، وهذا يمثِّل حرص البابويَّة على إِشرافها وسيطرتها على الحركة الصَّليبيَّة، وعلى الأَراضي التي ستحتلها، وأَعلن البابا أُوربان أَنَّ كلَّ من يشترك في الحرب المقدَّسة تُغْفَر له ذنوبه[3].

وبعد جولة أُوربية لمشروعه، عاد البابا أُوربان إلى رومة سنة

---

(١) كليرمونت Clermont - Ferrand مدينة في وسط فرنسة.

(٢) مدينة بوي Puy جنوب شرق فرنسة.

(٣) الحركة الصَّليبيَّة ١٣٣ وما بعدها.

١٠٩٦م، بعد أن تأكَّد من نجاح مشروعه الصَّليبي، مصطحباً معه ريموند الرَّابع أمير تولوز[١] ليكون قائد الحملة العسكري.

وأثارت دعوة البابا أُوربان الثَّاني حركة شعبيَّة ضخمة، ترتبط في التَّاريخ عادة باسم (بطرس النَّاسك)[٢]، الذي سار بحماسة مع فصاحة وهيئة غريبة، ثياب مهلهلة، وقدمان عاريتان، وحمار أعرج، جعلت منه شخصيَّة ذات تأثير خطير على جماهير العامَّة، والدَّهماء في غرب أُوربة، حيث إنَّهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتَّى تغلب عليهم الحماسة، فيجتمعون في سرعة غريبة، ويشرعون في الزَّحف صوب الشَّرق، دون إعطاء البابا والأُمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصَّليبيَّة، تنظيماً جدِّياً من النَّاحيتين السِّياسيّة والحربيّة.

واستطاع (والتر المفلس) في شرق أُوربة من جمع أَتباع عبر هنغارية إلى القسطنطينيَّة، حيث التقى بطرس النَّاسك، وارتكبت هذه الجموع التي أتت لتحارب باسم المسيح والمسيحيَّة، جرائم بشعة بحقِّ المسيحيِّين أنفسهم، فنهبوا سملين Semlin الهنغاريَّة، مع مذبحة رهيبة أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء، واستمر النَّهب والسَّلب في كلِّ طريق هؤلاء، فنهبوا بلغراد ونيش وغيرهما من المدن والقرى الآهلة، حتَّى اعتدوا على الكنائس.

---

(١) تولوز Toulouse مدينة في جنوب فرنسة على نهر الغارون.

(٢) بطرس النَّاسك Pierre L'Ermite، راهب فرنسي.



الجيش الصليبي في اتجاهه نحو بيت المقدس

عام ٤٩٠هـ - ١٠٩٦م

وفي تشرين الأَوَّل (أكتوبر) ١٠٩٦م فاجأ السَّلاجقة هذه الجموع، فلم ينج منهم سوى ٣٠٠٠ فقط من أَصل قُدِّر بِـ٢٥٠٠٠ محارب، منهم ٥٠٠ فارس، وهكذا أَخفقت (حملة العامَّة)، التي قادها بطرس النَّاسك ووالتر المفلس، وبقي ذكرها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصَّليبيَّة[1].

بعد إِخفاق حملة العامة، قاد جودفري بوايون أَمير لوثرنجية، وبرفقته أَخوه بلدوين البولوني، الحملة الصَّليبيِّة الأُولى، وهي أَوَّل حملة صليبيَّة نظاميَّة شقَّت سبيلها إلى الشَّرق.

وصلت الحملةُ الحدودَ البيزنطيَّة أَواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٦م، وخاف الإِمبراطور البيزنطي أَلكسيوس كومنين من الحملة لذكريات حملة العامَّة وأَعمالها السَّوداء، وعلى الرَّغم من التَّعهدات، وجعل أَخيه بلدوين رهينة عند الإِمبراطور أُفلت زمام الصَّليبيِّين فترة من جودفري بوايون، فقام رجاله بالنَّهب والسَّلب، ودعا الكسيوس جودفري بوايون ليقسم له يمين الولاء، وأَنَّ الأَراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السَّلاجقة ستكون للقسطنطينيَّة، رفض جودفري الدَّعوة لأَنَّه تابع للإِمبراطوريَّة الرُّومانية المقدَّسة، فهو والٍ للإمبراطور هنري الرَّابع في الغرب، وهو أَمير كاثوليكي ينفِّذ دعوة البابا أُوربان الثَّاني، فكيف يقدِّم ولاءه لحامي الكنيسة

(١) الحركة الصليبيَّة ١٤٠.

الأُرثوذكسيَّة، وأخذ بالمماطلة حتَّى تصل الإمدادات، وأَدرك الإمبراطور أَلكسيوس ذلك، فمنع التَّموين عنه، وأَخيراً اضطر جودفري إلى قبول شروط أَلكسيوس، وتعهد بتسليم الإمبراطور جميع الأَراضي التي سيحتلها من السَّلاجقة إليه، وذلك في نيسان (إبريل) ١٠٩٧م.

وسار النورمان بعد سماعهم أن جيشاً كبيراً خرج من فرنسة وأَلمانية في طريقه إلى القدس بقيادة بوهيموند[1]، مع ابن أُخته تنكرد من جنوب إيطالية وصقِلِّيَّة، وهي حملة منظَّمة، تسليحها جيِّد.

كما وصلت جموع من إقليم بروفانس بقيادة ريموند أَمير تولوز وبروفانس إلى القسطنطينية في نيسان (إبريل) ١٠٩٧م، ووصلت جموع أُخرى من فرنسة بزعامة روبرت أَمير نورمندية، ليبدأ عبور البوسفور إلى آسية الصُّغرى بعد أَن أَمدَّهم الإمبراطور البيزنطي بآلات الحصار والطَّعام والمؤن، لبدء الهجوم على نيقية حاضرة قلج أَرسلان الأَوَّل، فوصلوها في ٦ أَيار (مايو) ١٠٩٧م، ولم يتمكَّن قلج أَرسلان من حماية المدينة للجموع الكثيفة، على الرَّغم من خسارة الصَّليبيين الفادحة، وعادت نيقية، ثمَّ هرقلة، وقيصرية وطَرَسُوس وأَضنة ومرعش وعينتاب، ووصلوا أَنطاكية في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧م.

---

(١) أكبر أبناء روبرت جويسكارد الذي غزا الدولة البيزنطيَّة وهدَّد القسطنطينية ذاتها سنة ١٠٨١م.

اتَّجه بلدوين إلى الرُّها بنصيحة من أَرمن كيليكية، فدخلها في آذار (مارس) ١٠٩٨م، مقيماً أَوَّل إمارة صليبيَّة في الشَّرق.

وفي الوقت نفسه كانت جموع صليبيَّة تحاصر أنطاكية الحصينة، فحوصرت سبعة أَشهر من ٢٠ تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٠٩٧م، حتَّى ٣ حزيران (يونية) ١٠٩٨م حيث دخلها الصَّليبيُّون، ليشكِّلوا الإِمارة الصَّليبيَّة الثَّانية، وبعد احتلال البارة ومعرة النُّعمان.. اتجهت الحملة الصَّليبيَّة الأُولى إلى بيت المقدس، بعد أَن ظلَّت قرابة خمسة عشر شهراً في شمال بلاد الشَّام، من تشرين الأوَّل ١٠٩٧م إلى كانون الأَول (ديسمبر) ١٠٩٨م.

والذي يسترعي العجب حقّاً أنَّ المسلمين ظلُّوا حتَّى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصَّليبيِّة وهدفها، بدليل أَنَّ الفاطميِّين في مصر فكَّروا في مشروع للتَّحالف مع تلك القوَّة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشَّام، ضد خصومهم العباسيِّين السُّنَّة في بغداد، والأَتراك السَّلاجقة في الشَّام[1].

وكان الوزير الأَفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، صاحب السُّلطة الفعليَّة في مصر منذ ١٠٩٤م وحتَّى ١١٢١م، الذي انتهز فرصة الفوضى التي أصابت العالم الإسلامي، فاحتل القدس، وأَرسل عام ١٠٩٨م سفارة إلى الصَّليبيِّين الذين كانوا يحاصرون أنطاكية، فرحَّبوا بالسَّفارة، وطمأنوا الفاطميِّين، ودقاق

(١) الحركة الصَّليبيَّة ١٩٧.

السَّلجوقي حاكم دمشق، أنَّهم لا يطمعون إلاَّ في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيِّين فيما مضى، أي الرُّها وأنطاكية واللاذقيَّة، كما استمالوا رضوان ملك حلب.

تحركت الحملة بقيادة ريموند وتنكرد وروبرت النورماندي بطريق داخلي، كي لا يحاصروا المدن السَّاحليَّة فيطول الأمر، ودهش الفاطميُّون حينما وجدوا الصَّليبيِّين يتقدمون جنوباً صوب فلسطين، واستطاع جودفري بوايون يسانده روبرت دي فلاندرز إجبار ريموند في الزَّحف دون إبطاء على بيت المقدس.

جاء في (النُّجوم الزَّاهرة ١٤٧/٥): لم ينهض الأفضل لمشاركة القوى الإسلامية التي نهضت للدِّفاع عن بلاد الشام، «كلُّ ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج».

وفي (الكامل في التَّاريخ، أحداث ٤٩٢هـ): الفاطميُّون دعوا الصَّليبيِّين إلى بلاد الشَّام ليساعدوهم ضد الأتراك السَّلاجقة، ووجدوا في سقوط أنطاكية أُمنية عزيزة تخلِّص الشَّرق من سيطرة الأتراك السُّنيِّين.

❊ ❊ ❊

احتلال بيت المقدس

التزم الصَّليبيُّون في حملتهم الأُولى طريق السَّاحل بعد صور، ثمَّ اتَّجهوا إلى الرَّملة، ثمَّ تركوها في ٦ حزيران (يونيو) ١٠٩٩م إلى بيت المقدس، فوصلوها في ٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩م، وحاول افتخار الدَّولة حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأَفضل اتِّخاذ الاحتياطات لمواجهة الصَّليبيِّين عن طريق ميناء يافا، وفي يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) اقتحم الصَّليبيُّون بعد حصار دام نيفاً وأَربعين يوماً بيت المقدس، فارتكبوا مذبحة وحشيَّة رهيبة[١]، حتَّى قال مؤرخوهم: إن جنودنا كانوا يخوضون حتَّى منتصف أَرجلهم في دماء المسلمين، ونُهِب المسجد الأقصى.

قدَّر المؤرِّخون عدد القتلى المسلمين بسبعين أَلف قتيل، وذكر وليم الصُّوري أَنَّ بيت المقدس شهدت عند دخول الصَّليبيِّين مذبحة رهيبة، حتَّى أَصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين، أَثارت خوف الغزاة واشمئزازهم، لذلك اعترف الأُوربيُّون أن مذبحة ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبيَّة الأُولى، إنَّها مذبحة ظلَّت تثير الأسى في قلوب المسلمين، حتَّى طَرْدِ الصَّليبيِّين نهائياً من بلاد الشام.

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ٢٤٥.

وتلقَّت الدَّولة الفاطميَّة الأَخبار في برود، وظلَّت تغطُّ في سباتها العميق، والخلافة العباسيَّة لم تحرِّك ساكناً.

ويُعدُّ جودفري بوايون أَوَّل حاكم صليبي لبيت المقدس منذ ٢٢ تموز (يوليو) ١٠٩٩م، وحمل لقب: (حامي بيت المقدس)، وبعد وفاته، حمل خلفه بلدوين لقب ملك في ٢٥ كانون الأَوَّل (ديسمبر) ١١٠٠م، وفي عهده حكم الصَّليبيُّون فلسطين، ووصلوا إلى ميناء العقبة ١١١٦م، بعد بناء حصن الشُّوبك للسيطرة على وادي عربة، فبلغت مملكة بيت المقدس الصَّليبيَّة أَوج اتساعها سنة ١١١٦م، وفكَّر بلدوين بغزو مصر، ولكنه توفِّي قرب العريش في ٢ نيسان (أبريل) ١١١٨م.

إمارة طرابلس

تحمَّس كثير من الأُمراء الَّذين لم يشاركوا في الحملة الأُولى للذَّهاب إلى بلاد الشَّام، بعد سماعهم نجاح الحملة، ليفوزوا بنصيب من الغنائم قبل ضياع الفرصة، فتحرَّكت حملة في أيلول (سبتمبر) ١١٠٠م عبرت البوسفور في نيسان (إبريل) ١١٠١م، ولكن هذه الجموع كان مصيرها الفشل، بسبب دعم قلج أَرسلان السَّجلوقي، ورضوان ملك حلب الملك غازي كمشتكين، فَهُزِم الصَّليبيُّون بين أماسية وسيواس أَوائلِ آب (أغسطس) ١١٠١م، ولقيت الحملة مصيراً مشؤوماً، اتَّجهت بقاياها إلى أَنطاكية، وإلى القسطنطينية، واتَّجهت هذه البقايا من أَنطاكية إلى بيت المقدس للحج، ففكَّر ريموند الصَّنجيلي في

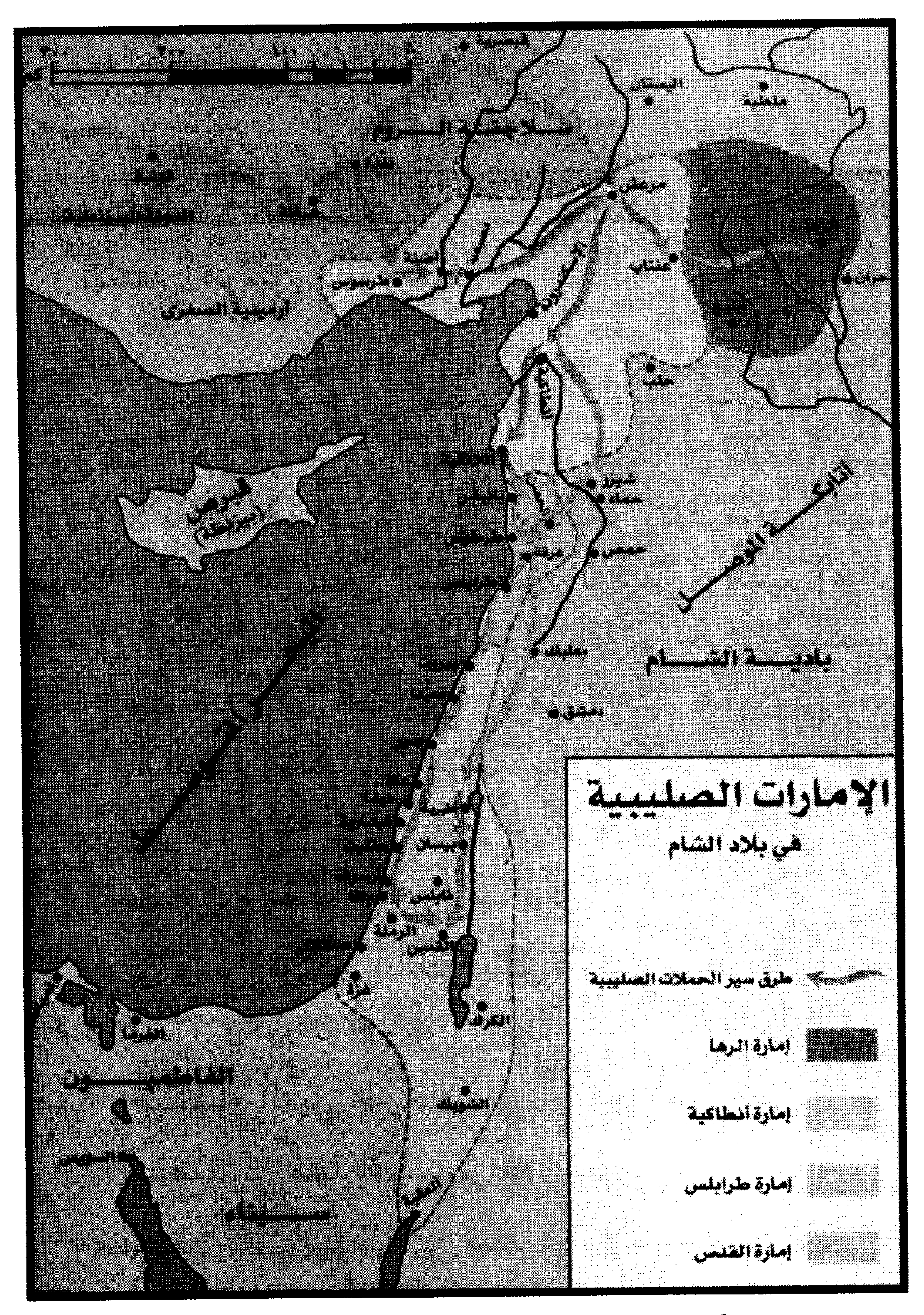
الاستفادة من تلك البقايا في الاستيلاء على طرطوس التَّابعة لبني عمَّار، فسقطت بيده في شباط (فبراير) ١١٠٢م، واتَّجه للاستيلاء على طرابلس من القاضي فخر الدِّين أبي علي بن عمَّار، الذي حاول الاستنجاد بدقاق ملك دمشق، وأمير حمص جناح الدولة.

واغتال ثلاثةٌ من الباطنيَّة في جامع حمص الكبير جناحَ الدَّولة في أيار (مايو) ١١٠٢م، مخلِّصين ريموند من ألد خصومه، فاستنجد أهل حمص بدقاق ملك دمشق، الذي دخل حمص، وأناب عنه في حكمها أتابكه طغتكين.

وحاول ريموند احتلال طرابلس فلم يفلح ومات في نهاية شباط (فبراير) ١١٠٥م، فحكم من بعده ابن خالته وليم جوردان.

ولم يفلح الصَّليبيُّون في احتلال طرابلس إلاَّ بعد توحيد جهودهم مع فرسان بيت المقدس وأنطاكية والرُّها مجتمعين، وذلك بعد حصار دام ست سنوات، ودخل الصَّليبيُّون طرابلس في ١٢ تموز (يوليه) ١١٠٨م، وحكمها برترام بن ريموند، الذي قدم من بروفانس بعد موت أبيه يريد تركته، بعد مقتل وليم جوردان في ظروف غامضة.

بلغت هذه الإمارة أقصى اتِّساع لها سنة ١١٣٢م، فامتدت من قلعة المرقب شمالاً، حتَّى نهر الكلب جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسِّط غرباً، حتَّى حصن الأكراد وعكار شرقاً.



عن أطلس التاريخ العربي الإسلامي (للمؤلف)

نُور الدِّين زِنْكي
النَّصر مرتهن بالوحدة

بعد مقتل آقسنقر على يد تتش أخي ملكشاه سنة ١٠٩٤م، دخل عماد الدِّين زنكي ابن قسيم الدَّولة آقسنقر في خدمة أَتابكة الموصل، فأَظهر همَّة كبيرة، وكفاية عالية، وبعد موت أَتابك الموصل وحلب عز الدين مسعود بن البرسقي، طلب أعيان الموصل من السُّلطان السَّلجوقي تعيين حاكم جديد، يستطيع الدِّفاع عنها ضد تهديد الصَّليبيِّين، فوقع الاختيار على زنكي سنة ١١٢٨م، فتوسَّع في نصيبين وحرّان وسروج والبيرة، ونظَّم أُمور حلب بعد أَن دخلها في ١٨ حزيران (يونيو) ١١٢٨م.

وكانت الشَّام مقسَّمة بين ثلاث قوى:

١- بوري بن طغتكين أَتابك دمشق، وكان يسيطر على دمشق وحماة شمالاً، وحوران جنوباً.

٢- صمصام الدِّين خيرخان، بعد قراجا أَمير حمص.

٣- سلطان بن منقذ، المسيطر على شيزر.

انضمَّ خيرخان وسلطان بن منقذ في ولاء وخضوع لزنكي، ولم يبقَ أَمامه سوى تاج الملوك بوري أتابك دمشق، فتوجَّه زنكي

إلى حماة، ودخلها في أيلول (سبتمبر) ١١٣٠م، ليتحقّق مشروعة بتوحيد قوى المسلمين، فلا يمكن اتّخاذ خطوة حاسمة ضد الصّليبيّين، قبل قيام وحدة بين الإمارات الإسلاميّة، وبعد تعثُّر وهزائم، تحوّل الموقف لصالحه، وبعد موت بوري ١١٣٣م، قام ابنه شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل في الحكم، الذي أمعن في ارتكاب القبائح والمنكرات، فقُتِل في مؤامرة دبّرتها أُمّه صفوة الملك زمرُّد أوّل شباط (فبراير) ١١٣٥م، وتولّى حكم دمشق أخوه شهاب الدِّين محمود بن بوري حتّى قُتِل أواخر حزيران (يونيو) ١١٣٩م، فتدخّل معين الدِّين أنر وقتل القتلة، واستدعى جمال الدِّين محمد بن بوري أمير بعلبك، ليحل محل أخيه القتيل، وما كاد زنكي يحاصر دمشق حتّى توفي جمال الدِّين في ٢٩ آذار (مارس) ١١٤٠م، وجمّد التّحالف الذي تمّ بين البوريّين والصّليبيين الموقف في بلاد الشّام، فاتّجه زنكي إلى إمارة الرُّها، متّخذاً ذريعة أن جوسلين الثّاني أمير الرُّها تحالف مع بني أُرتق في ديار بكر، فاتّجه إلى ديار بكر، فاطمأن جوسلين أنّ الخلاف بين زنكي والأُرتقيّين، فغادر الرُّها، وعبر الفرات إلى تل باشر، فعلم زنكي بذلك، فانقضّ على الرُّها، وحاصرها في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٤٤م، وسقطت بيده في ٢٣ كانون الأوّل (ديسمبر) ١١٤٤م، فشمل جميع السُّكان على اختلاف دينهم برعايته وحمايته، مع رفض الغنيمة، فترك النّاس وأثاثهم في بيوتهم، ثمّ حرّر سروج في كانون الثاني (يناير) ١١٤٥م.

أَيقن عماد الدِّين زنكي أنَّ توحيد القوى الإِسلاميَّة للقضاء على عدوان الصَّليبيِّين وممالكهم أمرٌ حتمي، ولكنَّه اغتيل فجأة في منتصف أيلول (سبتمبر) ١١٤٦م، بيد مولى من مواليه، وهو يحاصر قلعة جعبر، حتَّى صاح أهلها بقاتله ويدعى يرنقش، أو بيرنقش، لقد قتلت المسلمين كلَّهم بقتله، كما ذكر ابن العديم.

وبدأ نور الدين محمود بن زنكي، جهاده ضد الصَّليبيِّين بنجاح على سُنَّة أبيه، حتَّى حرَّر معظم أَراضي إمارة أنطاكية، وأدار الأُمور بحنكة ومهارة ودراية بأحوال البلاد وظروفها.

إِنَّه محمود بن زنكي (عماد الدِّين) بن آقسنقر، أبو القاسم، نور الدِّين، الملقَّب بالملك العادل: [٥١١-٥٦٩هـ/ ١١١٨-١١٧٤م]، إنه أَعدل ملوك زمانه وأَجلُّهم وأفضلهم، معتنياً بمصالح الرَّعية، امتدَّت سلطته في الممالك الإسلاميَّة حتَّى شملت جميع بلاد الشام الشَّرقيَّة، والموصل وديار بكر، والجزيرة، ومصر، واليمن، وخُطِب له بالحرمَيْن.

داوم على الجهاد، وباشر القتال بنفسه، وكان مهيباً وقوراً، مُكْرِماً للعلماء، عارفاً بالفقه، سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة، وكان يجلس في كلِّ أُسبوع أربعة أيَّام، يَحْضَرُ الفقهاء عنده، ويأمر بوصول من يشاء من الرَّعية إليه، وكان يتمنَّى أن يموت شهيداً، فمات بعلَّة الخوانيق في قلعة دمشق، فقيل له الشَّهيد(١).

---

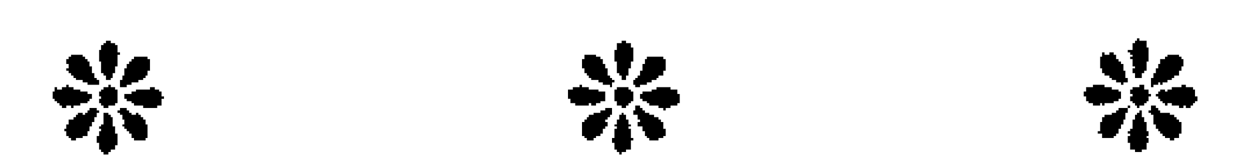
(١) الأعلام ٧/ ١٧٠.

إنَّ إيمانه العميق كان محرِّكه في حياته لهدف عظيم، هو جمع كلمة المسلمين، ليتمكَّن من تحرير البلاد من الصَّليبيِّين، ولم يحارب الصَّليبيِّين لأنَّهم نصارى، بل لأنَّهم أجانب غرباء عن هذه الديار المسلمة، وقد اعتدوا على المقدَّسات.

كان شيخ جامع الموصل عمر الملا مربِّي نور الدِّين ومرشده، يمضي رمضان المبارك بجواره، ويتناول معه طعام الإفطار على مأدبة واحدة، مع زهد بكلِّ ما ملك، لم يكن له بيت يسكنه، يقيم في غرفة بقلعة البلد الذي يحلُّ فيه، ولم يكن له راتب يتقاضاه، إنَّما كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من مُلك له في الموصل، ورأى الأموال أَموال المسلمين، مرصدة لمصالحهم، وهو خازن عليها، ولن يخونهم فيها.

أنشأ المدارس، وبنى المشافي، وعني بالطُّرق والخانات، وأَقام دار العدل محكمة هو قاضيها، يحاكم أيّاً كان دون النظر إلى مكانته ووظيفته، فعفَّ قوَّاده وعماله عن الظُّلم.

وتدخَّل في الدُّعاء له على المنابر، وأَمر أن يكون من قبل: اللهم أره الحقَّ حقّاً، اللهم انصره، اللهم وفِّقه.. وبعد هذا كلّه، يمكننا القول: إنَّه الخليفة الرَّاشدي السَّادس.



الحملة الصَّليبيَّة الثانية

شعرت أُوربة بعد سقوط إِمارة الرُّها أنَّ ما بنوه في الشَّرق بدأ ينهار، فسارعوا إلى ترميمه بحملة صليبيَّة ثانية سنة ١١٤٧م، بقيادة كونراد الثَّالث إمبراطور ألمانية، ولويس السَّابع ملك فرنسة.

وأَخفق كونراد الثَّالث الأَلماني في الوصول إلى بلاد الشَّام لخلافه مع إِمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين، ولسلوكه طريقاً ضمن أراضي السَّلاجقة الذين هاجموا الألمان بالقرب من أسكيشهر في ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٤٧م وبدَّدوا شملهم بين قتيل وأَسير، وتراجع كونراد إلى نيقية مع فلول جيشه بصعوبة، والتقى بها بلويس السَّابع[١].

وزاد الموقف الصليبي سوءاً حينما عقد الإمبراطور البيزنطي صلحاً مع سلاجقة قونية، وما كاد جيش لويس السَّابع يجتاز البوسفور إلى آسية حتَّى اطمأن إمبراطور القسطنطينية على

(١) الحركة الصَّليبية ٦٢٦.

عاصمته، فأمر بوقف إمدادات المؤن للصَّليبيين، إلاَّ إذا تعهد لويس السَّابع بالولاء والتَّبعيَّة لما يفتحونه من أراضٍ آسيوية، فأذعن لويس السَّابع لرغبته، وما هي إلاَّ أيَّام حتَّى وصلت الحملة إلى نيقية لتفاجأ بكارثة تطابق الكارثة التي حلَّت بالألمان وإمبراطورهم كونراد الثالث.

قضى كونراد أشهراً في القسطنطينيَّة في رعاية مانويل كومنين وعطفه، وفي آذار (مارس) ١١٤٨م اتَّجه كونراد الثالث ومن بقي من جنده إلى فلسطين على سفن بيزنطيَّة.

وتقدَّم لويس السَّابع ومن بقي معه من جنده من إفسوس نحو أنطالية[١] فوصلها في كانون الثاني (يناير) ١١٤٨م، فاستجم فترة، ثمَّ غادرها بحراً مع حاشيته وبعض فرسانه إلى ميناء السُّويدية[٢]، تاركاً بقيَّة رجال الحملة في أنطالية يقاسون الأمرَّين من سوء معاملة البيزنطيِّين، وهجمات السَّلاجقة، حتَّى تمَّ نقلهم على دفعات إلى بلاد الشام.

هلل ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية بوصول لويس السَّابع، فقد تأمَّل استرداد الرُّها والقضاء على قوَّة الزِّنكيِّين، ولكن لويس السَّابع خيَّب أمله وأمل إمارة طرابلس أيضاً، وسار إلى

(١) أنطالية: هي أتاليا أو أداليا القديمة، ميناء جنوبي تركية على البحر المتوسط.
(٢) السُّويديَّة: ميناء قرب مصب نهر العاصي في البحر المتوسط.

بيت المقدس، خصوصاً حينما علم أنَّ كونراد الثالث وصل بيت المقدس.

خشي لويس السَّابع من زج نفسه ومن بقي معه في مغامرة غير مضمونة النَّتائج ضد نور الدِّين، وتشير المراجع الأُوربية[١] أنَّ الفترة التي قضاها لويس السابع في أنطاكية صحبتها إِشاعات عديدة عن وجود علاقات مريبة بين زوجته إليانور، وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية، وشُوهد الاثنان في خلوة أكثر من مرَّة، وحينما خشي على سمعته، قرَّر السَّفر فجأة، فامتنعت زوجته وأعلنت أنَّها تطلب الطَّلاق من زوجها، ولكن لويس السابع ساقها بالقوَّة أمامه إلى بيت المقدس.

وفي بيت المقدس، وفي حزيران (يونيو) ١١٤٨م قرَّر لويس السابع وكونراد الثالث وملك القدس بلدوين الثالث مهاجمة دمشق، حيث معين الدِّين أَنر، حليف بيت المقدس السابق، واجتمعت جيوشهم عند طبريَّة، ومنها زحفوا إلى بانياس، ووصلوا الغوطة في ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٤٨م[٢].

ومع بسالة الدِّفاع عن دمشق من قبل سكانها، تدفقت النَّجدات من المدن الشَّاميَّة، وبخاصة من نور الدِّين محمود،

---

(١) الحروب الصليبية، رانسمان ٢/ ٢٧٩.

(٢) الرَّوضتين ١/ ٥٢.

فأيقن الصَّليبيُّون بالهلاك والبوار والدَّمار[١]، ناهيك عن خلافهم فيما بينهم، فملك بيت المقدس يريد أن تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة له، وطمع لويس السابع بإقامة إمارة جديدة بدمشق خاصَّة به.

ورُفِعَ الحصار عن دمشق، خشية من جند الزِّنكيِّين، ووعد معين الدِّين أنر بإعطائهم حصن بانياس مقابل الجلاء عن دمشق، وطاردهم أهلها في أثناء انسحابهم، ولم يلبث كونراد الثالث أن أبحر من عكا إلى أوربة في ٨ أيلول (سبتمبر) ١١٤٨م، وغادر لويس السابع بعد ستة أشهر (١١٤٩م).

وهكذا فشلت الحملة الصليبية أمام أسوار دمشق، وانحطَّت هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشَّام، وارتفعت الرُّوح المعنوية عند المسلمين، وكَبُرَت آمالهم بالتَّحرير، خصوصاً بعد انتصار نور الدين على ريموند أمير أنطاكية وقتله في ٢٩ حزيران (يونيو) ١١٤٩م، وحاصر نور الدين أنطاكية، ووصلت قوَّاته إلى ميناء السُّويديَّة، واستطاع تحرير جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي.

وأُتيحت فرصة طيِّبة للسَّلاجقة بعد انتصار نور الدِّين

(١) ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي ٢٩٨-٢٩٩.

ليحرِّروا مرعش في أيلول (سبتمبر) ١١٤٩م، وفي عام ١١٥١م تقاسم نور الدين، ومسعود سلطان السلاجقة الرُّوم، وتمرتاش الأُرتقي صاحب ماردين، الممتلكات البيزنطية في شمال بلاد الشَّام، وبذلك تبخَّرت إمارة الرُّها الصليبية، وبذلك بداية النِّهاية للبناء الصَّليبي في بلاد الشام.

وبعد موت معين الدِّين أنر سنة ١١٤٩م، سارت أُسرته (البوريَّة) إلى الانقراض السَّريع، لأنَّ خليفته مجير الدِّين أَبق كان ضعيفاً منحلاً قاسياً ضيِّق الأُفق، فحالف الصَّليبيِّين، ودفع لهم ضريبة سنويَّة خوفاً من نور الدِّين، ممَّا أثار السُّكان ضده، وبذلك أُتيحت الفرصة لنور الدِّين، خصوصاً بعد أن قلَّت المؤن في دمشق، مسبِّبة حالة اقتصادية لا تطاق، فباتت دمشق مهيّأة لدخول نور الدِّين، ودخلها فعلاً في ٥٤٩هـ/ ٢٥ نيسان (أبريل) ١١٥٤م كيلا تقع بيد الصَّليبيِّين[١]، وغادر مجير الدِّين أَبق حمص وبالس، وآثر الذهاب إلى بغداد حيث توفِّي بها.

ولمس سكان دمشق الفارق بين حكم مجير الدِّين وحكم نور الدِّين الذي أكرم أهلها، مع العدل بين النَّاس، وتوافر المؤن، وإلغاء المكوس المفروضة على الغلال، مع ضبط لجنده في تصرُّفاتهم مع السُّكَّان، فاطمأنُّوا إلى حكمه.

---

(١) الدُّول الإسلامية، ستانلي لين بول ٣١٢.

ودخول نور الدين دمشق خطوة هامَّة في مصير الصَّليبيِّين في الشَّرق، فالوحدة تحقَّقت من الرُّها شمالاً، حتَّى حوران جنوباً، عاصمتها دمشق، وستمتد هذه الوحدة إلى مصر.

توفي بلدوين الثالث حاكم بيت المقدس في شباط (فبراير) ١١٦٢م، فتوّج أخوه عموري ملكاً على بيت المقدس، ورأى - بعد حصانة جبهة بلاد الشَّام - أن يتوجَّه جنوباً إلى مصر، حيث حالة الضَّعف التي تعانيها الخلافة الفاطميَّة، خصوصاً بعد وصول شاور إلى الوزارة في كانون الثاني (يناير) ١١٦٣م، وأساء إلى الخليفة العاضد، واستطاع ضرغام بن عامر طرد شاور من مصر سنة ١١٦٣م.

وفشلت محاولة عموري الأوَّل في غزو مصر، ووصل شاور إلى دمشق، وحثَّ نور الدِّين على ضم مصر، على أن يكون نائباً له بها، وبعد دراسة، سيَّر جيشاً إلى مصر سنة ١١٦٤م بقيادة أسد الدِّين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدِّين، فاستنجد ضرغام بالصَّليبيِّين، وتعهد لعموري بأن يتبع للصَّليبيِّين، ولكن مهارة شيركوه جعلته ينجح في دخول القاهرة في أيَّار (مايو) ١١٦٤م، وبعد خيانة شاور، ونقض عهوده، وتحالفه مع الصَّليبيّين، عاد شيركوه إلى الشَّام.

وأعاد نور الدِّين شيركوه مع صلاح الدِّين لضم مصر سنة

١١٦٧م، بطلب من الخليفة العاضد الفاطمي، حينما رأى استبداد شاور وتحالفه مع الصليبيين، ولم يستطع نور الدين ضم مصر إلاَّ في كانون الثاني (يناير) ١١٦٩م، وقتل شاور، وتوفي شيركوه في ٢٣ آذار (مارس) ١١٦٩م، وعندئذ خلفه صلاح الدين، وفي سنة ٥٦٧هـ، أيلول (سبتمبر) ١١٧١م دعا للخليفة العباسي المستضيء، منهياً حكم الفاطميِّين، ومات العاضد الفاطمي في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١١٧١م.

وحكم صلاح الدِّين مصر نائباً عن نور الدين، وخطب على منابر مصر باسم الخليفة العباسي والملك العادل نور الدِّين، ولم تلبث أن دبَّت وحشة بين الرَّجليْن، تحسَّنت الأُمور بعدها، وضم صلاح الدين النُّوبة واليمن، ثمَّ ساءت العلاقات ثانية، وفكَّر نور الدِّين بتسيير جيش إلى مصر لأخذها من صلاح الدِّين، ولكن عاجلته المنيَّة في ١٥ أيار (مايو) ١١٧٤م، وبذلك خلا الميدان لصلاح الدِّين، خصوصاً وقد تقاسم ورثته الدَّولة، مما هدَّد الوحدة الإسلاميَّة التي أفنى حياته لتحقيقها، وكان من نصيب ابنه الصالح إسماعيل حلب ودمشق، ولم يتجاوز عمره الحادية عشرة، وفرح سيف الدِّين غازي الثَّاني بن قطب الدِّين مودود بن زنكي أتابك الموصل بوفاة عمِّه، فأظهر الفسق، وأَمر بإِعادة المكوس، وتظاهر بالمنكرات، وأسرع إلى احتلال نصيبين وحرَّان والرُّها وسروح والرقة.. من الأَماكن التي كانت تابعة لعمِّه.

ونشب نزاع بين أقوى اثنين من أُمراء نور الدِّين بسبب الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، فاحتلَّ شمس الدّين علي بن الدَّاية حلب، واحتفظ شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن عبد المقدَّم بدمشق.

وصار صلاح الدِّين لا سلطان لأحد عليه بعد نور الدِّين، وساءه دخول ابن عبد المقدَّم في حلف مع عموري ملك بيت المقدس، وأيقن أنَّه موجَّه ضده.

وظهر في حلبة الصِّراع أيضاً سعد الدِّين كمشتكين الخادم - أحد أُمراء نور الدِّين - الذي نقل الملك الصَّالح إسماعيل من دمشق إلى حلب التي اتَّخذها حاضرة للدَّولة، واعتقل شمس الدِّين ابن الدَّاية، وانفرد بتسيير شؤون الدولة، حينها أرسل صلاح الدِّين لأُمراء نور الدِّين بالشَّام يقول: «لو أنَّ نور الدِّين علم أنَّ فيكم من يقوم مقامي، أو يثق إليه مثل ثقته بي يسلِّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، وأراكم قد تفرَّدتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأُجازي كلاً منكم على سوء صنيعة في ترك الذَّب عن بلاده»[1]، وحجَّته في دخول الشام: «الملك الصَّالح صبيٌّ لا يستقل بالأمر، ولا ينهض بأعباء المُلك»[2].

---

(١) مفرّج الكروب لابن واصل ٢/٧.

(٢) النُّجوم الزَّاهرة ٦/ ٢٤.

استخلف صلاح الدين أخاه الملك العادل على مصر، وسار إلى دمشق، فوصل إليها أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٤م، ليعيد الوحدة الإسلاميَّة بعد هذا التَّمزُّق، وليقف الجميع صفّاً واحداً متراصّاً في وجه الصليبيين، «لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرَّقت الكلمة، وطمع الكفَّار في البلاد... إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلاَّ ما جمع شملهم، وألَّف كلمتهم»[١].

وبعد تحقيق الأمن بدمشق، وتوزيع الأموال، ورفع المكوس، وإزالة المنكرات والضَّرائب التي أحدثت بعد وفاة نور الدين، سار شمالاً فدخل حمص في ١٠ كانون الأوَّل (ديسمبر) ١١٧٤م، ثمَّ حماة في ٢٨ من الشَّهر ذاته، ثمَّ اتَّجه إلى حلب، ولم يتمكَّن من دخولها لأن كمشتكين حاكم حلب استعان بريموند الثالث أمير طرابلس الصَّليبي، الذي هاجم حمص، فعاد صلاح الدين جنوباً، مما أطمع به الزِّنكيين الذين سيَّروا جيشاً من الموصل انضم إليه جيش حلب لاستعادة دمشق، وكانت المعركة بين الطَّرفين أواخر نيسان (إبريل) ١١٧٥م قرب حماة، فانتصر صلاح الدِّين، و«غنم كلَّ ما معهم»[٢]، وزحف مباشرة إلى حلب، ودخلها، وقطع الخطبة للصَّالح إسماعيل.

---

(١) مفرِّج الكروب ٢/١٨.

(٢) السُّلوك للمقريزي ١/٥٩.

ولم يتقاعس الصَّليبيُّون في هذه الأَجواء عن مهاجمة صلاح الدين بغارات على البقاع وغيرها، لكن هجماتهم كانت ضعيفة الأثر، محدودة النِّطاق بسبب اضطراب أحوالهم الدَّاخليَّة، حتَّى الحملة الصَّليبيَّة البيزنطيَّة على مصر عام ١١٧٧م باءت بالفشل، وزار صلاح الدِّين مصر مرَّات، كان آخرها آذار (مارس) ١١٨٢م، فحصَّن مدنها، وأمر ببناء الأُسطول في الإِسكندريَّة، الذي استطاع مهاجمة عكا[١] في تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١١٧٩م.

في هذه الآونة مرض بلدوين الرَّابع في بيت المقدس، وأخذ يشكُّ في كلِّ من حوله، وفي إمارة أنطاكية استسلم أميرها بوهيموند الثَّالث لشهواته وأَهوائه وملذَّاته، وفقد الصَّليبيُّون حليفهم القوي مانويل كومنين إمبراطور بيزنطة الذي توفي سنة ١١٨٠م، وتزوَّج أرناط (رينودي شايتون) سنة ١١٧٧م من إِتينت دي ميِّلي وريثة صاحب الأُردن، فملك حصني الكرك والشُّوبك، وهما يتحكَّمان في طريق حجاج المسلمين من جهة، وبالطَّريق بين شطري دولة صلاح الدِّين مصر والشَّام، وفي صيف ١١٨١م سار متوغِّلاً في الصَّحراء جنوباً حتَّى وصل تيماء[٢]، وهي (دهليز المدينة المنورة)، ولكن فرخ شاه ابن أخي

(١) قسطنطينيَّة الفرنج كما يسمِّيها أبو شامة المقدسي.

(٢) تَيْماء: شمال الحجاز، بين الشَّام ووادي القرى، يسمِّيها أبو شامة ٢/ ٢٣: دهليز المدينة.

صلاح الدين ونائبه في دمشق، أسرع إلى الأردن، مما جعل أرناط يرتد بعد أن نهب قافلة إسلاميَّة كبيرة[١].

ضمَّ صلاح الدين حلب في ١٢ حزيران (يونيو) ١١٨٣م، موحِّداً البلاد من جبال طوروس شمالاً، إلى النُّوبة واليمن جنوباً، يؤيِّده الخليفة العبَّاسي في بغداد، وعزُّ الدِّين أتابك الموصل يرهب جانبه، وسلطان سلاجقة الرُّوم يخطب ودَّه، والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة تصالحه، ولم يعد أمامه إلاَّ مواجهة المحتل الدَّخيل، فبدأ التَّضييق على مملكة بيت المقدس، فأخذ بيسان، وعسكر عند العَفُولة في مرج ابن عامر، وشنَّ غارات مركَّزة على المواقع الصَّليبيَّة الغربيَّة، في وقت عجز فيه ملك بيت المقدس عن الحركة لمرضه، ففوَّض الأمر لصهره جاي لوزينيان.

وعاد صلاح الدين إلى دمشق في منتصف تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٣م.

---

(١) أُسِرَ أرناط حينما كان أميراً لأنطاكية ١١٦٠م في قلعة حلب حتَّى ١١٧٥م، وصفه المؤرخون الأوربيون بأنه أنموذج للفارس اللِّص في عصره، اتَّصف بالجشع، وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتَّعصُّب الأعمى، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيراً في حلب في تعديل سلوكه أو تهذيبه (الحركة الصليبية ٢/ ٧٨٥)، وقال عنه أبو شامة ٢/ ٧٥: أغدر الفرنجة وأخبثها وأفحصها عن الرَّدى والرّداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة، والأيمان المبرمة وأنكثها وأحنثها.

وأقدم أرناط صاحب حصن الكرك على مشروع خطير سنة ١١٨٢، هدفه السَّيطرة على البحر الأحمر، وغزو الحرمَيْن الشَّريفَيْن، فاستولى على ميناء العقبة (أَيلة)، وبنى السُّفن التي أغارت على الموانئ المصرية كعيذاب المقابلة لميناء جدَّة على شاطئ البحر الأحمر الإِفريقي، ثمَّ نقل غاراته إلى ساحل الحجاز، حتَّى ذكر المقريزي في السُّلوك ٧٩/١ أن الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنوَّرة، لقد نزلوا على ساحل الحوراء قرب ميناء ينبع، وهدفهم طعن العالم الإسلامي في قلبه، ثم الوصول إلى عدن، للسيطرة على تجارة اليمن، واحتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندي.

وسارع العادل أخو صلاح الدين إلى إرسال أُسطول بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ، وبدأ بحصار العقبة، وتمكَّن من حرق مراكب الصليبيين كلها، ثم سار جنوباً وتعقَّب السُّفن الصَّليبيَّة عند عيذاب، فشواطئ الحجاز، ودمَّر معظم السُّفن الصَّليبيَّة على ساحل الحوراء، وأطلق من فيها من التُّجَّار المأسورين في شباط (فبراير) ١١٨٣م، وعاد حسام الدين بالأسرى، وأمر صلاح الدين بقتلهم جميعاً بوصفهم مجرمي حرب، ليكونوا عبرة لكلِّ من تحدِّثه نفسه بالاعتداء على حَرَم الله، وحَرَم رسوله، أمَّا أرناط فقد أقسم صلاح الدِّين على ألاَّ يغفر له فعلته هذه، ويذكر أبو شامة في الروضتين أنه نذر دمه.

حياة أُمَّة في حياة رجل

صلاح الدِّين الأيوبي
بطل حطين

[٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م]

أُخذت هذه الصَّفحات من كتاب (النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليوسفيَّة)، أو (سيرة صلاح الدِّين) لبهاء الدِّين بن شدَّاد[١] الذي لازم صلاح الدين طوال الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها في الشَّام، يخالطه مخالطة تامَّة، ولم يؤلِّف كتابه في حياة صلاح الدين ليتكسَّب مالاً أو جاهاً، بل بعد وفاة صلاح الدين، لذلك يتكرَّر في الكتاب: «رحمة الله»، ولذلك يروي ابن شداد معظم هذه السِّيرة وأحداثها من مشاهده، وهو ينصُّ في معظم الأحوال على أنَّه رأى الأحداث التي يؤرِّخ لها، أو سمع

(١) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، شُهِر بابن شدَّاد، لأنَّ شدَّاد جدُّه لأُمِّه، وقد توفي أبوه وهو طفل صغير، فربِّي في كنف أخواله بني شدَّاد، ولهذا نُسِب إليهم، ولد في الموصل سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م، وتوفي بحلب سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٩م، فهو قد عُمِّر وعاش ٩٣ سنة، [الأعلام ٨/ ٢٣٠، ومقدمة تحقيق (النَّوادر السُّلطانيَّة) ٣-١٣].

الأقوال التي يرويها، أمَّا إذا لم يكن قد شاهد حادثة ما بنفسه، فإنَّ الأمانة العلميَّة كانت تقتضيه أن ينصَّ على أنَّه كان متغيِّباً.

لهذا عُدَّت هذه السِّيرة أوثق المصادر للتّأريخ لحياة صلاح الدين، وعليها اعتمد جلُّ المؤرخين اللاحقين من عرب وأُوربيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدين، وخاصَّة الفترة الأخيرة من هذه الحياة (٥٨٤-٥٨٩هـ)، وهي فترة حافلة بالجهاد ضد الصَّليبيين، فإنَّ انتصار صلاح الدين في حطِّين، واستعادته لبيت المقدس في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م أَحدثتا ضجَّة كبرى في أوربة، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربة، وهم: ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترة، وفيليب أوجست ملك فرنسة، وفردريك بارباروسا ملك ألمانية.

وهذه السِّيرة التي كتبها ابن شدَّاد تقدِّم وصفاً تفصيلياً دقيقاً للأحداث التاريخية، وللمعارك الحربيَّة، ولأدوات القتال والحرب المستعملة في الجيشين مما لا نجده في مرجع آخر.

وينفرد الكتاب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الإسلامي والصَّليبي، منها كيف كان يجلس صلاح الدين للنَّظر في المظالم.

وأن بعض أُمراء الصليبيين في بلاد الشام «كان يعرف العربيَّة، وعنده اطلاع على شيء من التَّواريخ والأحاديث».

ناهيك عن عدد من الوثائق ضمَّها الكتاب تلقي الأضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدُّول المسيحيَّة المجاورة، ومن بينها الخطابات المرسلة من إمبراطور بيزنطة إلى صلاح الدين، وسفارة صلاح الدين إلى القسطنطينيَّة، ولكيفيَّة إقامة الخطبة في المسجد المقام في عاصمة الدولة البيزنطيَّة.

يقول ابن شدَّاد: «وبعد، فإني لما رأيت أيام مولانا السُّلطان، الملك النَّاصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصُّلبان، رافع عَلَم العدل والإحسان، صلاح الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشَّريفين، أبي المظفَّر يوسف بن أيوب بن شاذي.. قد صدقت من أخبار الأوَّلين ما كذَّبه الاستبعاد، وشهدت بالصَّحَّة لما روي من نوادر الكرام الأجواد، وحقَّقت وقعات شجعان مالكها ما قدحت فيه الشُّكوك من أخبار الشُّجعان، وأرت العيان من الصَّبر على المكاره في ذات الله ما قوي بها الإيمان، وعَظُمت عجائبها عن أن يحويها خاطر، أو يُجنها جنان، وجلَّت نوادرها عن أن تُحَدَّ ببيان لسان، أو أن تسطر في طرس ببنان.

وكانت - مع ذلك - من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤها، ولا يسع المطَّلع عليها إلاَّ أن تروى عنه أخبارها وأنباؤها، ومسَّني من رقِّ نعمتها، وحقِّ صحبتها، وواجب خدمتها، ما تعيَّن عليَّ به إبداء ما تحققته من حسناتها، ورواية ما علمته من محاسن صفاتها:

رأيت أن أختصر من ذلك على ما أملاه عليَّ العيان، أو الخبر الَّذي يقارب مظنونه درجة الإتقان، وذلك جزء من كُلٍّ، وقُلٌّ من جلّ، ليستدل بالقليل على الكثير، وبالشُّعاع على المستطيل بعد المستطير، وأسميتُ هذا المختصر من تاريخها: (النَّوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفيَّة).

وجعلته قسمين: «أحدهما: في مولده، ومنشئه، وخصائصه، وأوصافه وأخلاقه المرضيَّة، وشمائله الرَّاجحة في نظر الشَّرع الوفية، والقسم الثَّاني: في تقلُّبات الأحوال به، ووقائعه وفتوحه، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته.. والله المستعان في الصِّيانة عن هفوات اللِّسان والقلم، وجريان الخاطر بما فيه مزَّلة القلم، وهو حسبي ونعم الوكيل»[١].

مولده

ولد صلاح الدِّين بقلعة تكريت[٢] سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م.

كان والده أيوب بن شاذي والياً بها، وكان كريماً أريحيّاً حليماً حسن الأخلاق، مولده بدَوِين، وهي بلدة من نواحي أرَّان شمالي أذربيجان، بقرب من تفليس، وهي من بلاد الكُرْج

(١) النَّوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفيَّة ٣-٤.

(٢) تكريت: مدينة في العراق، على شاطئ نهر دجلة الغربي، شمال سامراء.

جورجية حاليّاً، انتقل إلى تكريت، حيث ترعرع، وكان محترماً مقدَّماً هو وأَخوه أسد الدِّين شيركوه عند الأتابك زنكي.

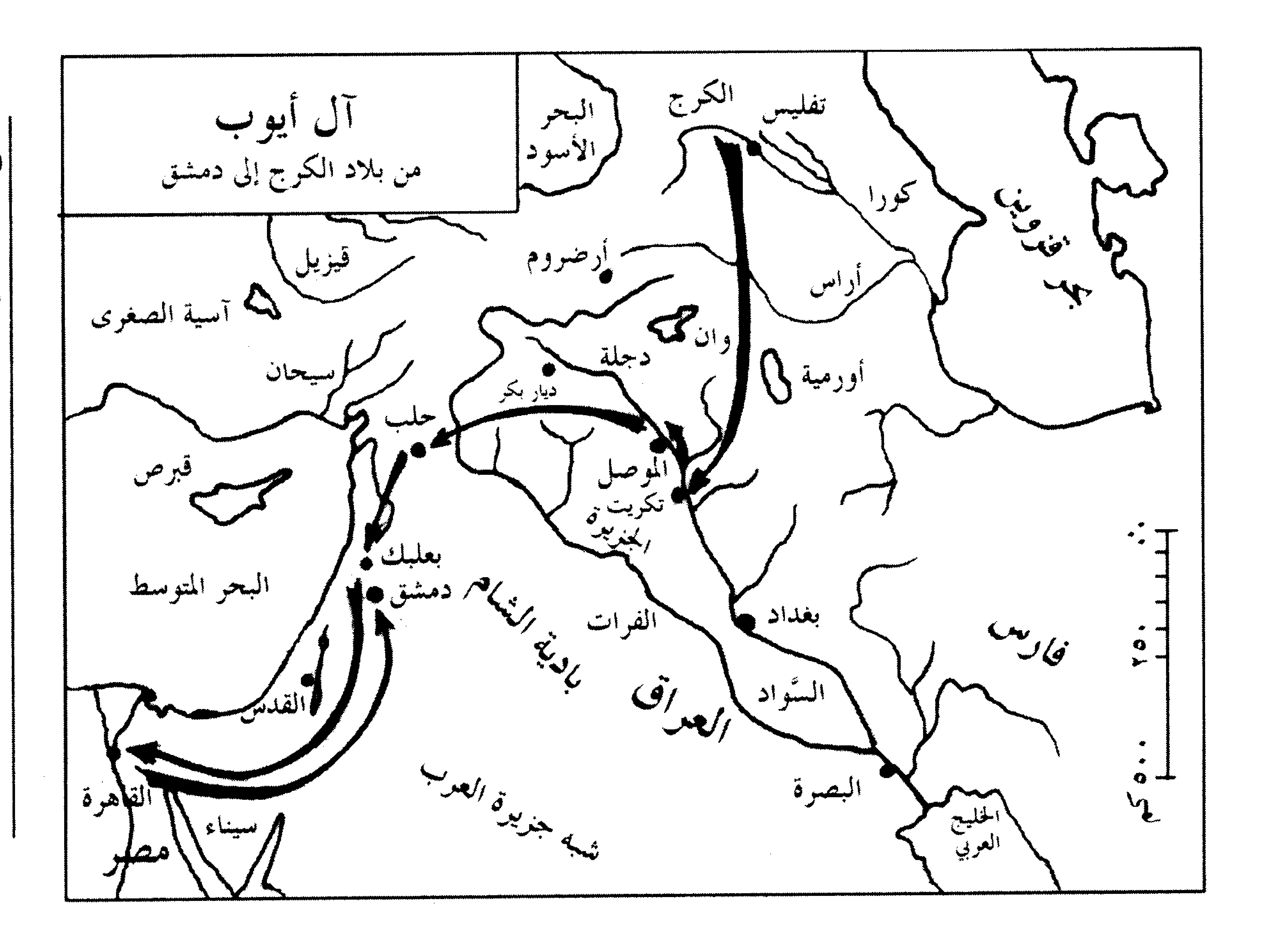
واتَّفق لوالد صلاح الدِّين الانتقال إلى الشَّام، وأُعطي بعلبك[١]، وفيها أقام صلاح الدِّين في خدمة والده ينهل من محاسن أخلاقه، حتَّى بدت منه أمارات السَّعادة، ولاحت عليه لوائح التَّقدُّم والسِّيادة، فقدَّمه الملك نور الدِّين محمود بن زنكي، وعوَّل عليه، ونظر إليه، وقَرَّبه وخصَّصه، ولم يزل كلَّما تقدَّم قدماً تبدو منه أسبابٌ يقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى، حتَّى اتَّفق لعمه أسد الدِّين الحركة إلى مصر والنُّهوض إليها.

مواظبته على القواعد الدِّينيَّة، وملاحظته للأمور الشَّرعيَّة

كان صلاح الدِّين حسَنَ العقيدة، كثير الذِّكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته على الدَّليل بوساطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهُّمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر

---

(١) بعلبك: مدينة في سهل البقاع (لبنان)، عرفت باسم مدينة الشَّمس (هليوبوليس)، تشتهر بآثارها.


آل أيوب
من بلاد الكرج إلى دمشق
البحر الأسود
الكرج
تفليس
كورا
بحر قزوين
قيزيل
أرضروم
أراس
آسية الصغرى
وان
دجلة
أورمية
سيحان
ديار بكر
حلب
الموصل
قبرص
تكريت
الجزيرة
بعلبك
البحر المتوسط
دمشق
بادية الشام
الفرات
بغداد
فارس
القدس
العراق
السَّواد
البصرة
القاهرة
شبه جزيرة العرب
سيناء
مصر
الخليج العربي
٠
٢٥٠
٥٠٠ كم

التَّشبيه، غير مارق سهم النَّظر فيها إلى التعطيل والتَّمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النَّظر الصَّحيح، مرضيَّة عند أكابر العلماء.

وكان قد جمع له الشَّيخ الإمام قطب الدِّين النَّيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدَّة حرصه عليها، يعلِّمها الصِّغار من أولاده حتَّى ترسخ في أذهانهم في الصِّغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه.

وكان شديد المواظبة على الصَّلاة جماعة، حتَّى إنَّه ذكر يوماً أنَّ له سنين ما صلَّى إلاَّ جماعة، وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده، ويكلِّف نفسه القيامَ، ويصلي جماعة، مع مواظبة على السُّنن أيضاً.

وكان له ركعات يصليها في اللَّيل قبل الصُّبح، وما ترك الصلاة قط حتَّى في مرضه.

أمَّا الزَّكاة: فإنّه مات ولم يملك نصاباً وجبت عليه به الزَّكاة، أمَّا صدقة النَّفل فإنَّها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، لقد مات ولم يخلِّف في خزانته من الذَّهب والفضَّة إلاَّ سبعة وأربعين درهماً ناصريَّة، وجرماً واحداً ذهباً صوريّاً[١]، ولم يخلِّف ملكاً

(١) دينار واحد، جاء في العماد الكاتب: لم يخلِّف في خزانته سوى ستة وثلاثين درهماً، وديناراً واحداً ذهبيّاً، وصوريّاً ضُرِب في مدينة صور.

ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك.

وكان محافظاً على صيامه، وإن أفطر في مرض أو جهاد، قضاه، وكان حريصاً على براءة ذمَّته، «ولم يزل حتَّى قضى ما كان عليه».

وعزم على الحج ونوى، وصمَّم العزم عليه، وأَمر بالتَّأهُّب، عُمِلت الزّوادة، ولم يبقَ إلاَّ المسير، فأخّره إلى العام المستقبل لضيق ذات اليد، فقضى الله ما قضى.

وكان يحب سماع القرآن الكريم، يستقرئ من يحضره في اللَّيل الجزأين والثَّلاثة والأربعة، وهو يسمع، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقرَّبه، وجعل له حظّاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة.

وكان رقيق القلب، خاشع الدَّمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبُه، وتدمع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرَّغبة في سماع الحديث الشريف، تردَّد إلى الحافظ السِّلفي: أبو طاهر عماد الدِّين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم، المحدِّث المشهور بالإسكندريَّة، وروى عنه أحاديث كثيرة.

وكان كثير التَّعظيم لشعائر الدِّين، حسن الظَّن بالله، كثير

الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، يقول ابن شدَّاد: «صلَّى ركعتين بين الأذان والإقامة، ورأيتُه ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته، ثمَّ على سجادته»، لقد علم أنَّه يقول: «إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضيَّة في نصرة دينك، ولم يبقَ إلاَّ الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل»[١]، وكان هذا حينما قالت له عيونه: إنَّ الصَّليبيِّين تجمَّعوا (ببيت نوبة) قرب بيت المقدس لحصاره بقوَّة كبيرة جدّاً، فمع الاستعدادات واتِّخاذ الأسباب، التجأ إلى الله، فتفرَّقت كلمة القوم، الإنكليز والفرنسيِّين، فرحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة.

عدله

لقد كان صلاح الدِّين عادلاً رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضَّعيف على القوي.

كان يجلس للعدل في كلِّ يوم إثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتَّى يصل إليه كلُّ أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً.

(١) النَّوادر السُّلطانيَّة ١٢.

على أنَّه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يُعرض عليه من القصص (العرائض، أوراق التَّظَلُّم)، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كلِّ يوم، ويفتح باب العدل، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات، وكان يجلس مع الكاتب ساعةً، إمّا في اللَّيل أو في النهار، ويوقِّع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذِّكر والمواظبة على التِّلاوة.

ولقد كان رؤوفاً بالرَّعيَّة، ناصراً للدِّين، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز، عالماً بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبداً.

وأورد ابن شدَّاد (صفحة ١٤) قصَّة عن محاكمته لابن أخيه تقي الدِّين، وكان من أعزِّ النَّاس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابه في الحقِّ، وكيف أنَّ رجلاً تاجراً اسمه عمر الخلاطي حَاكَمَ صلاح الدِّين بالقدس، ولما توضَّح للقاضي كذبه وصدق صلاح الدِّين بوجود الشُّهود، قال ابن شدَّاد: يا مولاي، هذا الرَّجل ما فعل ذلك إلاَّ طلباً لمراحم السُّلطان وقد حضر بين يدي المولى، ولا يَحْسُن أن يرجع خائباً للقصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدَّم له بخلعة ونفقة بالغة، يقول ابن شدَّاد: فانظر إلى ما في هذه القضيَّة من المعاني الغريبة العجيبة والتَّواضع والانقياد إلى الحقِّ، وإرغام النَّفس، والكرم في موضع المؤاخذة، مع القدرة التَّامَّة.

كرمه

يكفيه أنَّه فتح ما فتح، وحرَّر ما حرَّر، ثم مات ولم يملك إلاَّ سبعة وأربعين درهماً وديناراً ذهبيّاً واحداً، وكان يعطي في وقت الضِّيق كما يعطي في حال السَّعة، وكان نوَّاب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال، حذراً من أن يفاجئهم مُهِمٌّ، لعلمهم بأنَّه متى علم به أخرجه.

يقول ابن شداد في معرض حديث جرى، يقول صلاح الدِّين: «يمكن أَن يكون في النَّاس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إِلى التُّراب»[١]، فكأنَّه أَراد بذلك نفسه.

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطَّالب.

وعرف النَّاس كرمه، فكانوا يستزيدونه في كلِّ وقت، وما سُمِعَ قط يقول: قد زدتُ مراراً، فكم أزيد؟

وما خدمه قطُّ أَحدٌ إلاَّ وأغناه عن سؤال غيره.

وسمع ابن شداد من صاحب ديوانه يقول له: «وقد تجارينا عطاياه، فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف فَرَس، ومن شاهد عطاياه، يستقل هذا القدر» (تعليق ابن شداد).

---

(١) النَّوادر السُّلطانيَّة ١٨.

شجاعته

كان من عظماء الشُّجعان، قوي النَّفس، شديد البأس، عظيم الثَّبات، ولا يهوله أمر، ولقد رأيته - يقول ابن شدَّاد - مرابطاً في مقابلة عدَّة عظيمة من الفرنج، ونُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلاَّ قوَّة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيِّف وسبعون مركباً إلى عكا وأنا أعدُّها، من بعد صلاة العصر إلى غروب الشَّمس، وهو لا يزداد إلاَّ قوة نفس، وكان يعطي دستوراً (إجازات) في أوائل الشِّتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدَّتهم الكثيرة.

وكان لابُدَّ له من أن يطوف حول العدو في كلِّ يوم مرَّة أو مرَّتين إذا كنّا قريباً منهم.

وإذا اشتدَّ الحرب يطوف بين الصَّفَّيْن، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، وينظِّم الأجناد، ويشارف العدو ويجاوره[١].

وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتَّدبير، تُذْكَر بين يديه الأقسام كلُّها، ويرتِّب على كلِّ قسم بمقتضاه من غير حِدَّةٍ ولا غضب

---

(١) النَّوادر السُّلطانيَّة ٢٠.

يعتريه. وإذا حدث خلل في جيشه وتراجع، يقف ثابت القدم في نفر يسير، يجمع النَّاس ويردُّهم حتَّى يُكْتَبَ له النَّصر.

ولقد اهتم بالجهاد وشغف به، فلا حديث له إلاَّ فيه، ولا يهتم إلاَّ برجاله، ولقد هجر في محبَّته أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر الملاذ، وقنع من الدُّنيا بالسُّكون في ظلٍّ خيمة تهبُّ بها الرِّياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت خيمته في ليلة ريح شديد على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج وإلاَّ قتلته، ولا يزيده ذلك إلاَّ رغبة ومصابرة واهتماماً. وابن شدَّاد من الذين ألَّف له كتاباً جمع فيه آداب الجهاد[1]، وكلَّ آية وردت فيه، وكلَّ حديث روي في فضله، وشرح غريبه، وكان كثيراً ما يطالعه، حتَّى أخذه منه ولده الملك الأفضل.

وذكر ابن شدَّاد أنَّ صلاح الدين أخذ كوكب[2] في ذي القعدة سنة ٥٨٤هـ، فأعطى الجند إجازات، وعاد عسكر مصر إلى بلادهم، وسار إلى عسقلان يودِّعهم بعد صلاة العيد في القدس، ثمَّ عاد إلى طريق السَّاحل يتفقَّد البلاد السَّاحليَّة إلى عكا، ويرتِّب أحوالها، فأُشير عليه ألا يفعل، فإنَّ العساكر في

---

(١) فضائل الجهاد، ألَّفها ابن شدَّاد خصِّيصاً لصلاح الدِّين، منه مخطوطه بمكتبة كوبريللي رقم ٧٦٤.

(٢) كوكب: بلدة بين بيسان جنوباً وطبرية شمالاً، شرق العفولة، على بعد كيلومترات عن نهر الأردن.

إجازة، وبقي في عدَّة يسيرة، والفرنج كلُّهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت لقولهم، وودَّع العسكر بعسقلان، وسار على السَّاحل باتِّجاه عكا في زمان كان الشِّتاء عظيماً، والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، فعظم أمر البحر عندي، حتَّى خُيِّل إليَّ أنِّي لو قال لي قادر إن جزتَ في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدُّنيا، لما كنت أفعل، لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموُّجه، فبينا أنا في ذلك، إذا التفت إليَّ وقال: أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى، قال: في نفسي أنَّه متى ما يسَّر الله تعالى فتح بقية السَّاحل، قسَّمت البلاد، وأوصيتُ وودَّعتُ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائرهم، وأتتبعهم فيها حتَّى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت.

ثم ذكر ابن شدَّاد ما دار في نفسه من هول البحر ومخاطر، فقال صلاح الدين: أنا أستفتيك، ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

ومن طرف صبره واحتسابه

رآه ابن شدَّاد بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دمامل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنَّما يكون متَّكئاً على جانبه إن كان

بالخيمة، وامتنع من مدِّ الطَّعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرَّق على النَّاس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتَّب النَّاس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال، وكان مع ذلك كلِّه يركب من بكرة النَّهار إلى صلاة الظُّهر يطوف على الكتائب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدَّة الألم، وقوَّة ضربان الدَّمامل، وأنا أتعجَّب من ذلك، فيقول: إذا ركبتُ يزول عنِّي ألمها حتَّى أنزل، وهذه عناية ربَّانيَّة.

وكان يقدِّم أولاده بين يديه احتساباً: الملك الظَّاهر، والملك الأفضل، والملك الظَّافر.

وحينما حاصر صفد، قال: لا ننام اللَّيلة حتَّى تُنصب لنا خمسة مجانيق، ورتَّب لكلِّ منجنيق قوماً يتولَّوْن نصبه، فكان ما أراد[1].

وكان شديد الشَّغف بأولاده الصِّغار، وهو صابرٌ على مفارقتهم، راضٍ ببعدهم عنه، وكان صابراً على مُرِّ العيش وخشونته، مع القدرة التَّامة على غير ذلك.

(١) ألَّف مَرْضيّ بن علي بن مرضي الطَّرَسُوسي كتاباً لصلاح الدِّين سمَّاه: (تبصرة أرباب الأرباء في كيفية النَّجاة، في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العُدَد والآلات المعينة على لقاء الأعداء). وصف فيه أنواع المنجنيقات جميعاً، وصفاً دقيقاً مشفوعاً بالرُّسوم، (الأعلام ٧/ ٢٠٣).

أمَّا عن حلمه وعفوه

حلم صلاح الدين عجيب غريب، مع قلَّة الغضب، ذكر ابن شدَّاد نماذج منها، نكتفي بواحدة[١]: نزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطَّعام بين يديه، ثمَّ عزم على النُّهوض، فقيل له: إن وقت الصَّلاة قد قَرُب، فعاد إلى الجلوس، وقال: نصلِّي وننام، ثم جلس يتحدَّث حديث متضجِّر، وقد أُخلي المكان إلاَّ ممن لزم، فتقدَّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعرض عليه قصةً لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أَخِّرها ساعة، فلم يفعل، وقدَّم القصَّة إلى قريب من وجهة الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب على رأسها فعرفه، فقال: رجل مستحق، فقال: يدفع المولى له، فقال: ليست الدَّواة حاضرة الآن، وكان جالساً في باب خيمة كبيرة تسمَّى (الخركاه)[٢]، بحيث لا يستطيع أحد الدُّخول إليها، والدَّواة في صدرها، فقال له المخاطب: هذه الدَّواة في صدر الخيمة، وليس لهذا معنى إلاَّ أمره إياه بإحضار الدَّواة لا غير، فالتفت فرأى

---

(١) لقد عفا بعد انتصار حطِّين عن قادة الصليبيين باستثناء (أرناط) لجرم ارتكبه كما سنرى.

(٢) الخركاه: لفظ فارسي، وهو نوع من الخيم يتكوَّن من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبَّة، وتغطِّيها قطع من اللبد.

الدَّواة ، فقال : والله لقد صدق، ثمَّ امتد على يده اليسرى، ومدَّ يده اليمنى فأحضرها ، ووقَّع له، فقلت - ابن شدَّاد - : قال الله تعالى في حقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤]، وما أرى المولى إلاَّ قد شاركه في هذا الخُلُق، فقال: ما ضرَّنا شيء، قضينا حاجته، وحصل الثَّواب، ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد النَّاس وأفرادهم لقام وقعد، ومَنِ الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك؟ وهذا غاية الإحسان والحلم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

«ولقد كانت طرَّاحته تُداس عند التَّزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثَّر لذلك، ولقد نفرت يوماً بغلتي من الجِمَال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتَّى آلمته وهو يبتسم، ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس الشَّريف، وهو كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطِّين حتَّى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يبتسم، وأردت التَّأخر عنه بسبب ذلك، فما تركني، ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلِّمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبشر والقبول»[١].

(١) النَّوادر السُّلطانية ٢٩.



صلاح الدين الأيوبي

محافظته على أسباب المروءة

ولقد كان صلاح الدين كثير المروءة، نديَّ اليد، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضُّيوف، لا يرى أن يفارقه الضَّيف حتَّى يُطْعَم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلاَّ ينجزه.

وكان يكرم الوافد عليه وإن كان غير مسلم، يقول ابن شدَّاد: «ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالنَّاصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطَّعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام، فذكر له طرفاً من محاسنه، وحثَّه عليه.

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل، وذوي الأقدار، وكان يوصينا بألاَّ نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتَّى نحضرهم عنده، ويناهم من إحسانه.

ولقد رأيته وقد مُثِّل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، حيث إنَّه ظهرت عليه أماراتُ الخوف والجزع، فقال له التُّرجمان: من أيِّ شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسان أنه قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له، وحضوري بين يديه، أيقنت أنِّي ما أرى إلاَّ الخير، فرقَّ له، ومنَّ عليه، وأطلقه»[١].

ويروي ابن شدَّاد بعد ذلك قصَّة المرأة الإفرنجيَّة التي افتقدت

---

(١) النوادر السُّلطانية ٣٢.

ابنتها، فرق لها، ودمعت عينه، وحرَّكته المروءة، وأمر بالبحث عنها، وما هي إلاَّ فترة وجيزة وابنتها بين يديها، فرفعت طرفها إلى السَّماء، ولا نعلم ما تقول، وحُملت حتَّى أُعيدت إلى مأمنها[١].

ويختم ابن شدَّاد سيرة هذا الرَّجل المسلم العظيم:

وكان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدُّنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضِرُه منه ما لا يسمع من غيره.

وكان حسن الخُلُق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلُّبات أحواله.

وكان طاهر المجلس، لا يُذْكَر بين يديه أحد إلاَّ بالخير، وطاهر السَّمع، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلاَّ بالخير، وطاهر اللِّسان، فما أُحضر بين يديه يتيم إلاَّ وترحَّم على مخلِّفيه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفه، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سَلَّمه إليه، وإلاَّ أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلَّمه من يعتني بتربيته ويكفلها.

(١) النَّوادر السلطانية ٣٣.

وكان لا يرى شيخاً إلاَّ ويرقُّ له، ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفّاه الله إلى مقرِّ رحمته، ومكان رضوانه.

«فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه، اقتصرتُ عليها خوف الإطالة والإسآم، وما سطّرتُ إلاَّ ما شاهدتُه، وأخبرني الثِّقة به وحقَّقتُه، وهذا بعض ما اطَّلعت عليه في زمان خدمتي له، وهو يسيرٌ مما اطَّلع عليه غيري ممَّن طالت صحبته، وقَدُمَت خدمته، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال»[1].

وبعد.. فلم أُقدِّم قائد معركة في هذه السِّلسلة (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) كما قدَّمت قائد حطِّين: (صلاح الدِّين الأيوبي)، ولم يكن ذلك مصادفة، فإن وراء ذلك سبباً أراه وجيهاً، ألاَّ وهو أنَّ مؤلِّفاً لا يمت إلى البحث التَّاريخي بصلة، ولا يميز بين مصدر معتمد، ومرجع معاصر مغرض، كُتِبَ من أجل أهداف معيَّنة، بعيداً عن الموضوعيَّة والأمانة العلميَّة، ومن أدلَّة ذلك دفاع بعضهم عن ابن العلقمي، الذي كان له دور بارز في سقوط بغداد بيد التتار ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ومراسلاته إلى هولاكو شاهد على ذلك، كما ورد في معركة عين جالوت من

---

(١) النَّوادر السُّلطانية ٣٤.

هذه السِّلسلة، فهو الذي جمَّل في أعين التتار القضاء على الخلافة العبَّاسيَّة، وأطلعهم على إمكانات المسلمين المتواضعة آنذاك، وكذلك دفاعهم عن نصير الدِّين الطُّوسي الذي رافق هولاكو في تحرُّكه في فارس، وأعانه بما يملك من خبرات وآراء، فعلت منزلته عند هولاكو الذي أغدق عليه الأموال مكافأة على خدماته.

وعلى هذا النَّهج الذي استنَّه جرجي زيدان في كتابة التَّاريخ الإسلامي، قدَّم أحدهم بدافع من مذهبيَّته كتاباً عن صلاح الدِّين الأيوبي (بين العبَّاسيِّين والفاطميِّين والصَّليبيين)، الهدف منه إظهار صلاح الدين وتقديمه بصورة معاكسة للواقع، ملخَّصها:

١- صلاح الدين غير ملتزم بالإسلام، إنَّه سكير عربيد.

٢- وإنَّه عميل للصليبيين متعاون معهم، أي: خيانة عُظْمى، وعمالة للاستعمار.

٣- ومعركة حطِّين معركة ثانويَّة، لا قيمة لها في ميزان الحروب الحاسمة الفاصلة، وكأنها غزوة، أو إغارة، بين قبيلتَيْن تنازعتا على الكلأ، أو مصدر ماء.

وفكَّرت بالرَّدِّ على هذا الكتاب لبيان الحقيقة التي سجلها المعاصرون، أي من معين المصادر المعتمدة، ولكنني أحجمت لسببَيْن اثنين:

الأوَّل: أن الكاتب لا يرقى إلى مستوى المؤرِّخين، وليس متخصصاً في هذا المجال، وعمله إنَّما هو تسقط لنصوص معيَّنة لمعاصرين أحياء في أيامنا هذه، كان يبحث عنها، مشيحاً وجهه عن المصادر الأصليَّة التي عاصرت زمن صلاح الدين والجيل الذي جاء من بعده مباشرة، كابن شداد، وأبي شامة المقدسي، وابن الأثير.. فهي المصادر المعتمدة (علميّاً)، التي لا ينبغي للمؤرِّخ الجاد (المنصف) أن يحيد عنها ابتداءً.

السبب الثَّاني: أنَّ المرحوم الدكتور شاكر مصطفى قد كفانا بأسطر الرَّدَّ على هؤلاء المغرضين، الذين لا يقدِّم كلامهم شيئاً ولا يؤخِّر، ومما ذكره المرحوم تحت عنوان (التَّاريخ لا تكتبه الأحقاد): هذا الكتاب حلقة من سلسلة من الكتب كان بعض أعداء صلاح الدين في المذهب الدِّيني قد كتبوها ضده، وماتت[1]، فجاء اليوم من أحياها، وهذا يدل على أنَّ لكلٍّ

(١) كما مات الذي افترى على قراقوش بن عبد الله الأسدي، نائب صلاح الدين في الدِّيار المصريَّة، كان هُماماً مولعاً بالعمران، مجاهداً، نسبت إليه خطأً أحكامٌ عجيبة، وابن خلِّكان يذكر أنَّها موضوعة، فأَحد الحاقدين الذين لم يماره قراقرش ولم يستثنه في أُمور أرادها، ألَّف كتاباً هجاه فيه، ونسب إليه زوراً وبهتاناً أحكاماً عجيبة، سمَّاه (الفافوش في أحكام قراقوش)، والمؤلِّف هو أبو المكارم أسعد بن مهذَّب، الملقَّب بالخطير ابن مَمَّاتي، قبطي من صعيد مصر، فأساء إليه وللحقيقة.

عظيم أعداء، وذلك أحد أسرار العظمة، وصاحب الكتاب يؤرِّخ ويؤوِّل على ما يشتهي دونما تعمُّق في التَّاريخ، حيث - كما يظهر - ليس لديه الاطِّلاع الكافي ولا النَّصيب الفكري.

إنَّ صاحب الكتاب انطلق فيه من حقد قديم، وليس من الحقائق التاريخية، فالتاريخ يكتبه المنطق ولا تكتبه الأحقاد، لقد سحق صلاح الدين في انتصاراته الجيش الصليبي نهائيّاً بكلِّ فصائله التي تجمعت من أنطاكية إلى القدس، فلم يبق لهم سيف يرفع، وأرسل فِرَق جيشه في كلِّ الاتجاهات يحصد نتيجة ذلك النَّصر السَّامق، ثمَّ انصرف إلى القدس وفتحها بنفسه وهو على بابها، فهل ينكر له مؤلِّف ذلك؟!

وأنكر الدكتور شاكر مصطفى ما أورده المؤلِّف في كتابه عن تخوف صلاح الدين من أن يصبح مجرَّد والٍ لدى الخليفة العباسي، قائلاً: إنَّ هذا حديث مضحك، لأنَّ الخليفة الناصر لم يكن يملك سوى جيش الفتوّة، أمَّا مملكة صلاح الدِّين، فكانت تضم ما بين ليبيا ومصر إلى اليمن والحجاز والشَّام والجزيرة، فمن الذي عليه أن يخاف من الآخر؟ إنَّ لسوء التأويل سريرة تجعل الأبيض أسود، والملاك شيطاناً.

وأعاد المرحوم الدكتور مصطفى إلى الأذهان ما كان لموقف نور الدين وصلاح الدِّين من أثر كبير على الشيعة في عصره،

فقال: لقد كافحهم نور الدِّين، ثم ألغى صلاح الدِّين الدولة الفاطمية في مصر، وقتل المتآمرين عليه وعلى الدولة حين قتل عمَّار اليمني الذي أراد إعادة الفاطميين، وأزال فروعهم في اليمن، وحاصر نشاطهم في حلب التي كانت مركزهم الأهم، وظلَّ الفاطميُّون وأشياعهم يناصبونه العداء إلى اليوم.

إنَّه لأَمر مؤسف، فقد ذهب به - بمؤلِّف الكتاب - وأضاعه التَّعصُّب، وتمنى أن يشفى من حقده على عملاق من رموز النِّضال في السَّاحة الإسلاميَّة، مضى على وفاته أكثر من ثماني مئة سنة.

على كلِّ حال، فصلاح الدِّين نَسْر كبير، ولا يضيره أن تنسلَّ بضع ريشات من جناحَيْه، ومالنا إلاَّ الأسف مرَّة أُخرى على أن يغلب الحقد المتأخِّر جداً على أمجاد الأُمَّة، فيحاول هدم رموز الأمَّة الكبار، قاتل الله هوى النُّفوس، ما أظلمه للذَّات وللآخرين.

وأقول: إنَّ جملة واحدة تظهر حقد المؤلِّف، وكيف أنَّه شكلَّ قناعته تعاطفاً وحزناً وأسفاً على سقوط الدولة الفاطميَّة: «ثمَّ شهد زوال دولتهم، وما جناه الطُّغاة من تعفيه آثار الفاطميِّين»، وليت المؤلِّف تكلَّم، أو أشار إلى تحالف من يأسف على زوالهم مع الصَّليبيِّين مراراً إن أراد الحقيقة، فكيان الفاطميين في مصر،

تهلهل في آخر سنوات حكمهم وتفكُّك، فلم يحتج إلى أكثر من هزَّة بسيطة لينهار، وهذه سُنَّة الحياة، والتاريخ لا تكتبه الأحقاد، ولا يضير صلاح الدِّين هذه الصَّرخة التي ضاعت - كغيرها - في واد.

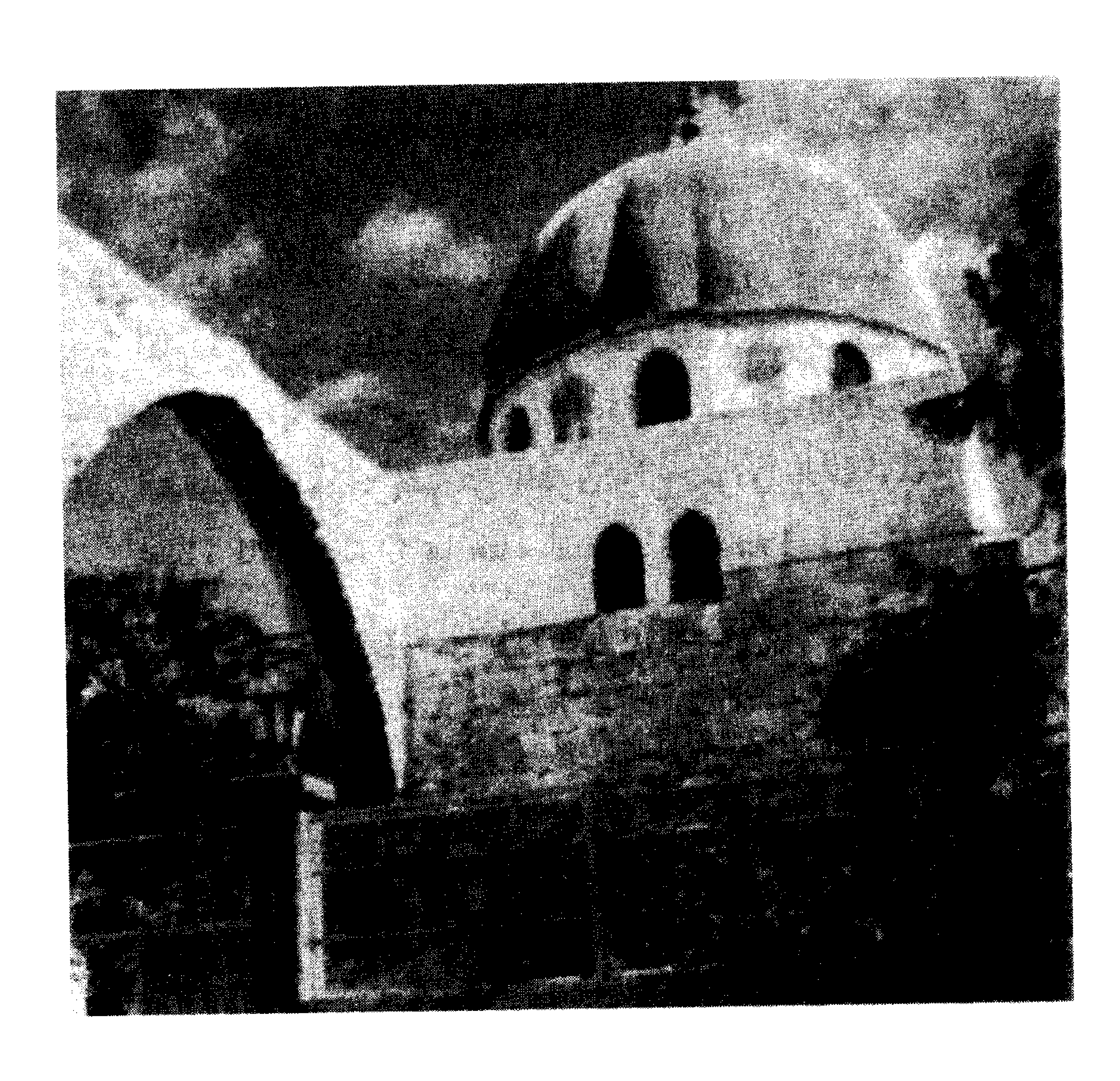
وموقف هذا المؤلِّف يذكرنا بالجنرال غورو، حينما وقف أمام قبر صلاح الدِّين، وقال له حرفيّاً بعد أن ضرب برجله ضريحه: «يا صلاح الدِّين، أنت قلت لنا في إبَّان حروبك الصَّليبيَّة إنكم خرجتم من الشَّرق ولن تعودوا إليه، وها إنَّنا عدنا، فانهض لترانا ها هنا، لقد ظَفِرْنا باحتلال سورية».

قال عمر أبو ريشة مصوِّراً هذا الموقف الأليم اللَّئيم:

رُبَّ غَازٍ أَذَلَّ جاءَ صلاحَ الدِّ يـنِ في هَـدْأَةِ الخلودِ المَهَابِ

هَاتِفاً في رَمِيمِهِ الطُّهْرِ: إنَّا ها هنا يا صلاحُ، يا لَلَعابِ

إنَّ للمجدِ دَمْعَةً حينَ يلقى جُثَّةَ اللَّيثِ عُرْضَةً للكلابِ



القبة التي تعلو قبر صلاح الدين (دمشق)

حِطِّين

السَّبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ

٤ تموز (يوليو) ١١٨٧م

تُوِّج جاي لوزينيان ملكاً على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الخامس في آب (أُغسطس) ١١٨٦م، فتقرَّب ريموند أمير طرابلس من صلاح الدِّين لضياع مطامعه، وخيبة آماله، حتَّى بث السَّرايا في إمارات الصَّليبيِّين من قومه وأهل مِلَّته، وهذا الانشقاق خير عظيم لصالح الجبهة الإسلاميَّة الموحدة.

ولم يتَّعظ أرناط صاحب الكرك بأحداث حياته، فهو لا يستطيع الحياة دون نهب وسلب، فانقض على قافلة كبيرة، تحمل ثروة طائلة، متَّجهة من القاهرة إلى دمشق أواخر سنة ١١٨٦م، أوائل سنة ١١٨٧م، وعلى الرَّغم من الاحتياطات اللازمة بوجود حماية من الجند، كَمِنَ أرناط للقافلة وحاميتها، وسلب كل ما فيها، وأسر رجالها، فأرسل إليه صلاح الدين يتهدَّده إن لم يطلق الأسرى والأموال، وامتنع أرناط، وبلغت به الوقاحة

إلى أن يقول لرسل صلاح الدين: قولوا لمحمد يخلِّصكم، ولما علم صلاح الدِّين بقوله، أقسم على أن ينتقم من أرناط، بل إنَّه نذر دمه، وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يقتله بيده.

حتَّى جاي لوزينيان أدرك خطورة ما قام به أرناط، فطلب منه إطلاق الأسرى، وإعادة المنهوبات، فأعرض وأصرَّ على عدم تنفيذ الأوامر التي أصدرها ملك بيت المقدس، فلم يبق أمام صلاح الدِّين إلاَّ القصاص، حرب قاضية على آمال الصَّليبيين في بلاد الشام، علماً أنَّ مملكة بيت المقدس حُرِمت من معونة إمارة طرابلس وأنطاكية بسبب تتويج جاي لوزينيان، فجدَّد بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس هدنتهما مع صلاح الدِّين، وأصبح جاي لوزينيان وحيداً بين عصيان أرناط، وتمرُّد ريموند الثَّالث.

وقام صلاح الدِّين بتعبئة شاملة لقوى دولته، لخوض معركة جهاد حاسمة، لن تنتهي إلاَّ بتحرير بلاد الشام من بقايا الصَّليبيين، فجاء الجند من حلب والجزيرة وديار بكر ومصر، وغادر دمشق في منتصف آذار (مارس) ١١٨٧م، حيث تجمع الجند عند رأس الماء قرب الشَّيخ مسكين في حوران، وبعد حماية قافلة الحجَّاج خوفاً من غدر أرناط، شرع في مهاجمة أرناط في الكرك والشُّوبك.

وفي ربيع ١١٨٧م استطلع صلاح الدِّين منطقة طبريَّة والجليل وسهل ابن عامر بفرسان قادهم مظفَّر الدين كُوكُبُري[١] صاحب حرَّان والرُّها، وحينما علم مقدَّم الدَّاويَّة[٢] جيراردي ريدفورت بأنَّ قوات صلاح الدِّين ستمر بإقليم الجليل، أسرع ليتصدَّى لها قرب صفورية، وهناك في أوائل أيار (مايو) ١١٨٧م سقط معظم الصَّليبيين بين قتيل وأسير، ومن جملة القتلى مقدم الإسبتاريَّة[٣] وعدد كبير من أبرز فرسانهم.

وسرعان ما أَفاق الصَّليبيُّون، فدخل ريموند الثالث أمير طرابلس في طاعة جاي لوزينيان، وتجمَّعت قواتهما عند صفورية، فزحف صلاح الدِّين على طبرية في أوائل تموز (يوليو)

(١) الملك المعظَّم مظفر الدِّين كوكُبُري التركماني [٥٤٩-٦٣٠هـ/ ١١٥٤-١٢٣٣م] صاحب إربل، ولد في قلعة الموصل، ولي إربل بعد وفاة أبيه علي ابن بكتكين، ثمَّ دخل الشَّام، واتصل بصلاح الدين، فأكرمه كثيراً، وله مواقف عظيمة في قتال العدو بالسَّاحل، وكان له اشتغال بالحديث وآثار حسنة في الحجاز وغيره، [الأعلام ٥/ ٢٣٧].

(٢) فرسان الهيكل أو الدَّاويَّة تأسَّست ١١١٨م، وانتهت ١٣١٤م، بإعدام فيليب الرَّابع ملك فرنسة زعيمهم.

(٣) فرسان مستشفى القديس يوحنَّا، أو الاسبتاريَّة، تأسَّست ١١١٣م في القدس، شاركت في الحروب الصليبية، وهم فرسان رودس، وفرسان مالطة فيما بعد، قضى عليهم نابليون ١٧٩٨م، (الموسوعة الثَّقافيَّة ٧١٢).

١١٨٧م، وتجلَّت مهارة صلاح الدِّين العسكريَّة حينما أراد خوض معركة حاسمة، يُحَدِّد ميدانها، فأجبر عدوَّه على المسير إلى المكان المرسوم، وفعلاً حينما هاجم صلاح الدين طبريَّة، ترك الصَّليبيُّون مراكزهم عند صفورية، وزحفوا باتِّجاهه، على الرَّغم من معارضة ريموند الثالث مع أنَّ زوجته كانت داخل طبرية، لكنه أدرك خطورة الاستدراج، وأخيراً نجح أرناط صاحب الكرك وجيراردي ريدفورت مقدَّم الدَّاويّة في إقناع جاي لوزينيان بالزَّحف على طبرية في جوٍّ حارٍّ، وقلة الماء وصعوبة الطَّريق، وتردَّد الجند ثم ساروا مكرهين.

وانتظرهم صلاح الدِّين قرب طبرية، في قرية حطِّين، وهي على بعد ثلاثة كيلومترات غرب طبريَّة، ينعم هو وجنده بالماء والظِّل والرَّاحة مع القوَّة والتَّصميم، بروح معنويَّة عالية، ولم يكتم سروره، فقال: جاء ما نريد.

وفي ٣ تموز (يوليو) حيث حرارة الجو الشَّديدة، وركود الهواء، وصل الصَّليبيُّون إلى هضبة مشرفة على سهل حطِّين، وهم منهكون وقد اشتدَّ بهم العطش، وحال جند صلاح الدِّين بين الصليبيِّين وبين مياه بحيرة طبرية العذبة، فقضى الصليبيُّون ليلتهم يئنُّون من العطش والإنهاك(١)، وهم يسمعون أصوات

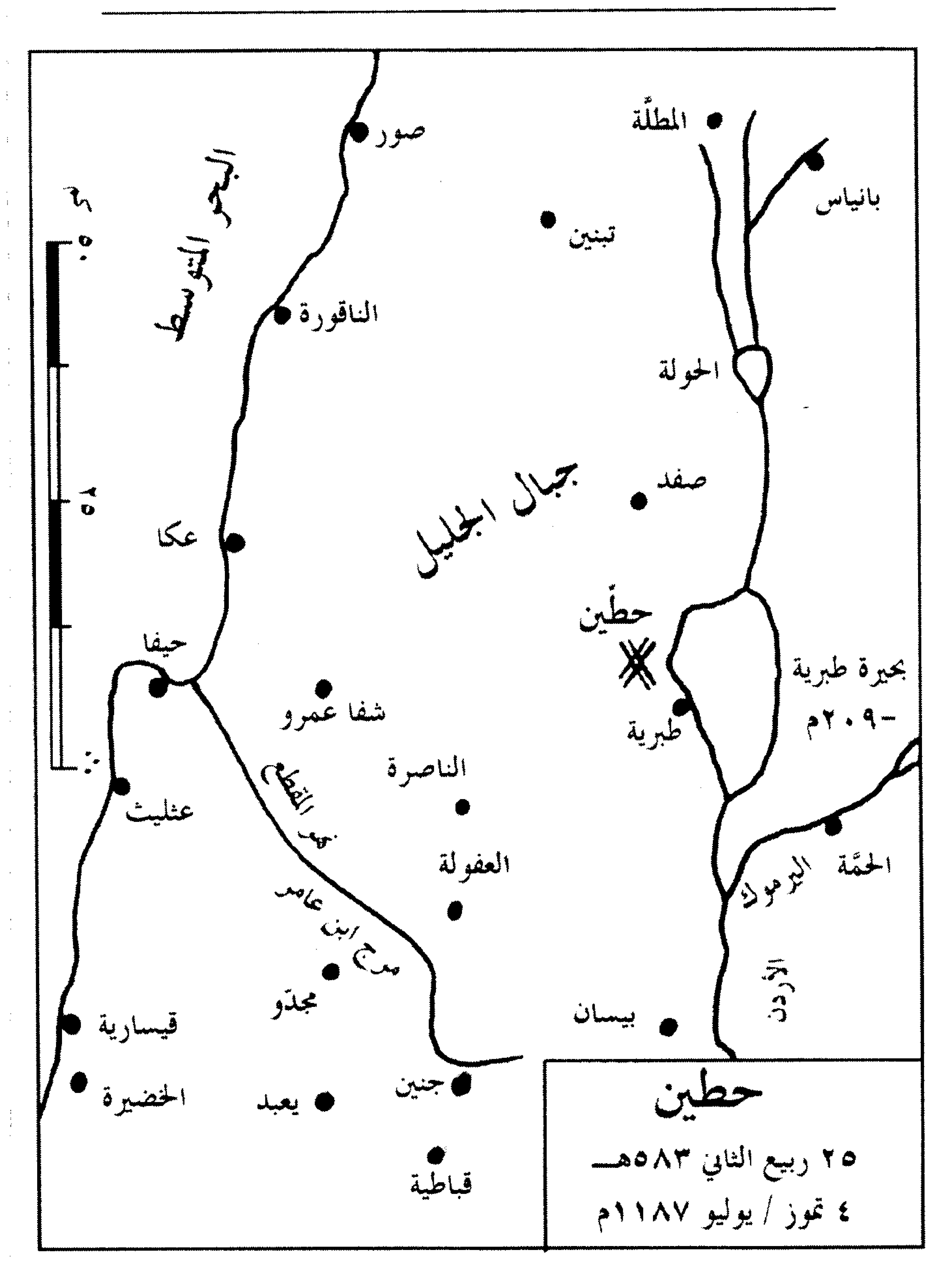
(١) الحركة الصَّليبية ٨٠٧.

المسلمين في كل حطّين، وقد أكثروا التَّكبير والتَّهليل طوال ليلتهم، ومع منع من حاول التَّسلل ليلاً إلى مياه بحيرة طبريَّة، أشعل المسلمون النار في الأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة، «وكانت الرِّيح على الفرنج، فحملت حرَّ النَّار والدُّخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحرُّ الزَّمان وحرُّ النار والدُّخان وحرّ القتال»[١]؟

وحينما أشرقت شمس يوم السبت ٤ تموز (يوليو) وجد الصَّليبيُّون أن صلاح الدين استغلَّ ستار اللَّيل ليحيط بهم «إحاطة الدَّائرة بقطرها»، وبذلك بدأ هجوم المسلمين على الصَّليبيِّين.

جاء في النَّوادر السُّلطانية ١٢١: أدرك المسلمون أنَّ من ورائهم نهر الأُردن، ومن بين أيديهم بلاد العدو، وأنهم لا ينجيهم إلاَّ صدق الجهاد، كذلك صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وتعذَّر على الصليبيين الصُّمود طويلاً وهم في غاية الحرج: إنهاك وعطش، فأخذتهم سهام المسلمين، وفرَّ ريموند أمير طرابلس ومعه قلَّة من رجاله، وحينما أراد ريموند الهرب، فتح له تقي الدِّين عمر ابن أخي صلاح الدِّين طريقاً، وبعد أن فرَّ التَّأم

(١) الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٥٨٣هـ.



المطلّة
صور
بانياس
البحر المتوسط
تبنين
الناقورة
الحولة
جبال الجليل
صفد
عكا
حطّين
حيفا
بحيرة طبرية
-٢٠٩م
شفا عمرو
طبرية
الناصرة
عثليث
العفولة
الحمّة
اليرموك
مرج ابن عامر
مجدّو
الأردن
بيسان
قيسارية
جنين
الخضيرة
يعبد
قباطية
حطين
٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ
٤ تموز / يوليو ١١٨٧م



أرض حطين وتبدو معها بحيرة طبرية

الصَّف[١]، وطارد المسلمون الصلبيين، فتراجعوا أمامهم نحو أعلى الجبل، وسقط أُسقف عكا قتيلاً، وأخذ المسلمون صليب الصَّلبوت، فأيقن الصَّليبيُّون القتل والهلاك، ولم يصل القمَّة إلا ملك بيت المقدس وحوله مئة وخمسون من الفرسان، فأسرهم المسلمون وهم يتساقطون من الإنهاك والعطش والخوف[٢].

وسيق جاي لوزينيان وأرناط وجيراردي ريدفورت وغيرهم من كبار الصليبيين إلى خيمة صلاح الدِّين، فاستقبلهم استقبالاً حسناً، وأجلس جاي لوزينيان إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فقدَّم له صلاح الدين إناء فيه ماء مثلَّج، فشرب منه، وترك به بقيَّة، أعطاها لأرناط فشربها، وعندئذ غضب صلاح الدِّين وقال: إنَّ هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيناله أماني[٣]، وفي كتاب الروضتين ٢/ ٧٩، قال صلاح الدين لجاي لوزينيان: لم تأخذ في سقيه منِّي إذناً، فلا يوجب ذلك له منِّي أمناً، والتفت نحو أرناط يذكِّره بجرائمه ونكثه لعهوده، وقرَّعه وعدَّد عليه غدراته، وقال له: كم تحلف وتنكث؟ فرد أرناط على لسان التُّرجمان: قد جرت بذلك عادة الملوك[٤]، وحينئذ أمسك صلاح الدين بسيفه، وأطاح برأسه موفياً بنذره.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الحركة الصليبية ٨٠٨.

(٣) الكامل حوادث سنة ٥٨٣هـ.

(٤) مفرِّج الكروب ٢/ ١٩٤.

وارتاع جاي لوزينيان، ولكن صلاح الدِّين هدّأ روعه، وقال له: لم تجرِ عادة الملوك أنَ يقتلوا الملوك، وأمَّا هذا فإنَّه تجاوز حدَّه، فجرى عليه ما جرى، ثمَّ أمر رجاله برعاية أُمراء الصَّليبيِّين وأسراهم.

❊ ❊ ❊

نتائج حِطِّين
استرداد بيت المقدس

كانت حطِّين كارثة حربيَّة حلَّت بالصَّليبيِّين، وكانت بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعماريَّة شهدها العالم في العصور الوسطى.

ومن نتائج حطِّين نقص كبير في فرسان الصَّليبيِّين، «فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل»[1].

وغدت الإمارات الصَّليبيَّة في سواحل بلاد الشَّام تحت رحمة صلاح الدِّين، فشرع بالفتح والتَّحرير مدينة بعد أُخرى فتحاً سريعاً متواصلاً، مع بُعْدٍ عن التَّطرُّف والانتقام، لقد توَّج ذلك بأخلاق كريمة وتسامح عُرِف صلاح الدِّين بها[2].

وبعد انتصار حطِّين السَّبت ٢٥ ربيع الثَّاني ٥٨٣هـ/ ٤ تموز

---

(١) الرَّوضتين ٢/٧٨.

(٢) الحركة الصَّليبية ٨١١.

١١٨٧م اتَّجه صلاح الدين الأيوبي إلى عكا والمدن السَّاحليَّة ليحرم الصَّليبيِّين إمدادات قواعدهم البحريَّة التي تربطهم بأوربة، وليتَّصل عبر هذه الموانئ بمصر، أحد شطري دولته، وحُرِّرت عكا صلحاً، وحرِّرت النَّاصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وشقيف والعفولة والطُّور ويافا وتبنين وصرفند وصيدا وبيروت والرَّملة ويبنا والدَّاروم وغزّة والنَّطرون وبيت جبرين وعسقلان.. ولم يبق أمام صلاح الدِّين داخل فلسطين إلاَّ بيت المقدس، فاتَّجه إليها، وتصرَّف تصرُّفاً كريماً حينما سمح بخروج النِّساء والأطفال من المدينة آمنين تحت حراسة جنده، وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١١٨٧م دخل صلاح الدِّين القدس في ليلة الإسراء والمعراج، ولم يهدم كنيسة، وأمَّا اليتامى والشُّيوخ والأرامل من الصَّليبيِّين فقد منحهم صلاح الدين مساعدات مالية من ماله الخاص.

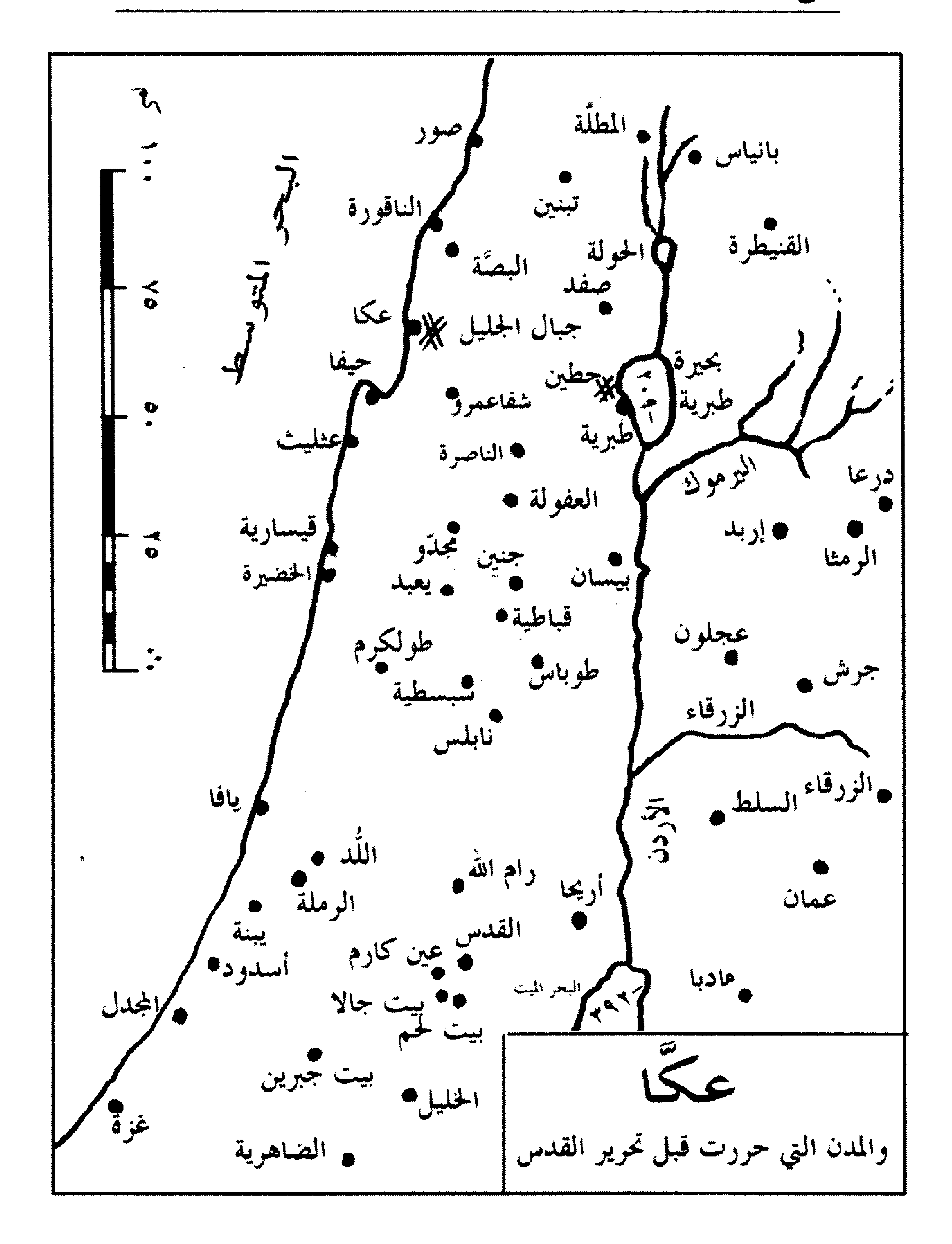
ولما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلَّق جماعة منهم إلى أعلى القبَّة ليقلعوا الصَّليب مع تكبير المسلمين فرحاً، وأمر صلاح الدِّين إعادة الأبنية إلى حالها القديم، وأمر بتطهير المسجد والصَّخرة من الأقذار والأنجاس، ولما كان الجمعة الأُخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدِّين، وكان الخطيب والإمام محيي الدين الزَّكي قاضي دمشق، فلبس الخلعة السوداء - رمز الخلافة العباسيَّة - وخطب للناس خطبة سنية

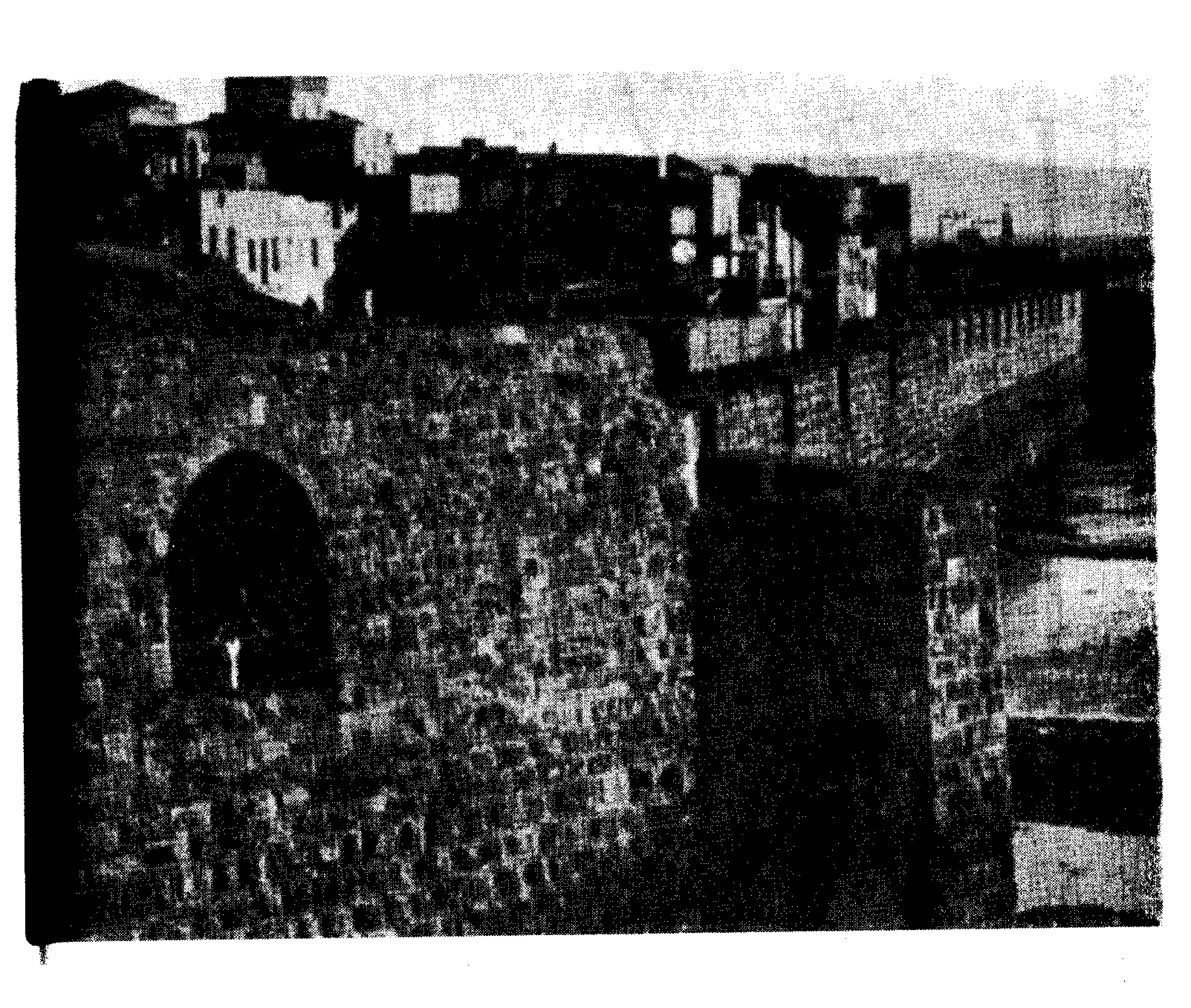
فصيحة بليغة، أوردها أبو شامة في الرَّوضتين بطولها، وكان أول ما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٥][١].

ثم رتَّب فيه صلاح الدِّين خطيباً وإماماً برسم الصَّلوات الخمس، وأمر أن يُعْمَل له منبر، فقيل له: إنَّ نور الدين كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصُّناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدَّس، فعمله النَّجَّارون في عدة سنين، لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحُمِل من حلب ونُصِب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة. وكان هذا من كرامات نور الدِّين وحسن مقاصده.

---

(١) جاء في الرَّوضتين ٢/ ١٠٨: وكثر المترشحون للخطابة، فكلٌّ واحد منهم يريد نيل شرف الخطبة الأولى في الأقصى بعد تطهيره من دنس المحتل، فنصَّب السُّلطان صلاح الدِّين الخطيب بنفسه: القاضي محي الدِّين أبو المعالي محمد ابن زكي الدِّين علي القرشي. والخطبة كاملة في الروضتين ٢/ ١١٠.


البحر المتوسط
صور
المطلّة
بانياس
تبنين
الناقورة
الحولة
القنيطرة
البصّة
صفد
عكا
جبال الجليل
حيفا
حطين
بحيرة طبرية
شفاعمرو
طبرية
عثليث
الناصرة
اليرموك
درعا
العفولة
قيسارية
مجدّو
إربد
الرمثا
جنين
الخضيرة
يعبد
بيسان
قباطية
عجلون
طولكرم
طوباس
جرش
سبسطية
الزرقاء
نابلس
يافا
الزرقاء
السلط
الأردن
اللُّد
رام الله
أريحا
الرملة
عمان
يبنة
القدس
عين كارم
أسدود
البحر الميت
مادبا
المجدل
بيت جالا
بيت لحم
بيت جبرين
الخليل
غزة
الضاهرية
كم
١٠٠
٧٥
٥٠
٢٥
٠٠
عكّا
والمدن التي حررت قبل تحرير القدس



سور عكا العظيم، بناه والي المدينة في عهد العثمانيين واستطاع صد الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت التي كانت امتداداً للحروب الصليبية

ولم يبق في مملكة المقدس غير ميناء صور، الذي لم يحرره صلاح الدِّين عقب تحرير عكا مباشرة، فتجمَّعت فيه البقايا الصليبية، لتزوِّد الميناء بطاقة بشريَّة كبيرة، إلى جانب حصانته الطبيعية[١] ، خصوصاً بعد وصول كونراد دي مونتغرات ملك فرنسة إليها، فحصَّنها أكثر.

وكان لتحرير بيت المقدس ردُّ فعل عنيف بالغرب، فدفعوا بالحملة الصليبية الثالثة بقيادة إمبراطور ألمانية فردريك بربروسا، وسنتابع الأحداث حتَّى تحرير البلاد كلها في الجزء التَّالي من هذه السلسلة (عين جالوت).

صورتان متلازمتان في تاريخ البشريَّة ما أبشع الأولى وأسوأها، وما أروع الثانية وأجملها.

الأُولى: صورة بيت المقدس يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩م، حيث وحشيَّة الصليبيين والدِّماء سواقي.

والثَّانية: يوم الجمعة ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م، حيث استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين، حيث أبت أخلاقه الإسلامية الرَّدَّ بالمثل، ملقِّناً الغرب درساً في تسامح الإسلام، وروحه الإنسانيَّة.

---

(١) ذكر ابن جبير في رحلته٢٧٧: مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، وذكر ابن الأثير في الكامل أحداث سنة ٥٨٣هـ: حفر حولها خندق جاءته المياه، فصارت صور جزيرة لا يمكن الوصول إليها، ولا الدُّنو منها.

خاتمة

سبب الجفوة بين ابن الأثير وصلاح الدين!

دخل الصليبيُّون ثانية عكا في تموز (يوليه) ١١٩١م، مما أثار موجة من الحزن والأسى، «وغشي النَّاس بهتة عظيمة وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصِّياح والعويل والبكاء والنَّحيب»[١].

وزاد من لوعة الأسى أن الصليبيِّين غدروا بوعدهم، ونقضوا شروط الصلح «فأسروا من فيها من المسلمين وكانوا أُلوفاً»[٢]، وكان ريتشارد قلب الأسد الزَّعيم الأوحد للحملة الصَّليبية الثالثة، أحوج ما يكون للاتِّزان والتَّعقُّل والبعد عن التَّهوُّر، لقد سار بأَسرى عكا من المسلمين في ٢٠ آب (أُغسطس) ١١٩١م، حينما تباطأ المسلمون في تسليم صليب الصَّلبوت وتبادل الأسرى، ولم يحاول الاتِّصال بصلاح الدين ومعرفته السَّبب والزَّمن، وكان الأسرى ثلاثة آلاف مسلم، حيث تَمَّ قتلهم صبراً

---

(١) الروضتين ٢/١٨٨.

(٢) السُّلوك ١/١٠٥.

وطعناً وضرباً بالسَّيف، والمسلمون عن بعد يشاهدونهم، ولا يدرون ما يفعلون لبعدهم عنهم.

وشتان بين هذا السُّلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد في ذبح أسرى المسلمين، وبين السُّلوك الإنساني الذي اتبعه صلاح الدين عقب انتصاره في حطّين، ثم عقب تحريره بيت المقدس[١]، إذ حرص دائماً على السَّماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصَّليبيِّين بمغادرتها سالمين، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التَّعرُّض لهم، بل إنه لم يضن على ريتشارد نفسه في أثناء مرضه بالفاكهة والثَّلج، أرسلها إليه، والصَّليبيُّون يحاصرون عكا[٢].

ولم يرد صلاح الدين على وحشية ريتشارد بالمثل، ولم يقتل مَنْ كان في حوزة المسلمين من أسرى الصَّليبيِّين، وهم أعظم عدداً بكثير من أسرى عكا المسلمين.

صحيح أنَّ صلاح الدين أغلق باب المفاوضات مع ريتشارد حول أي موضوع يتعلَّق ببيت المقدس وبصليب الصَّلبوت[٣]، ثم استعد لقتال ريتشارد والصَّليبيين، ولم يحجم في المعارك التالية عن قتل بعض من وقع في يده من أسرى الصليبيين، ويروي ابن

---

(١) الحركة الصليبية ٨٧٢.

(٢) مفرِّج الكروب ٢/ ٣٥٥.

(٣) الفتح القسي ٢٩٣.

شدَّاد أنَّه حينما وقع أسيران في يد صلاح الدين في أثناء الزَّحف على عسقلان فإنَّه قتلهما[١]، وكان في حدَّة الضِّيقة لما جرى على أسرى عكا.

وهنا قال ابن الأثير: الإفراط في التسامح مع الخصوم، والمبالغة في التَّساهل، فالملك أو الحاكم «لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار، فلئن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مضيِّعاً للحزم»[٢].

فالجفوة (أو التَّحامل) سببها الإفراط في التَّسامح مع الخصوم، والمبالغة في التَّساهل معهم، ناهيك عن حبِّ ابن الأثير لنور الدِّين الشَّهيد وتحيُّزه له[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) النَّوادر السُّلطانية ٢٨٧.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٧.

(٣) مصادر ومراجع الأجزاء الخمسة الأخيرة في آخر جزء منها: تشالديران.

